الوجهة الثانية عشرة
تشتمل على ثلاث صور
فى ذكر الوقت الذى احترق فيه مسجد السعادة
وكيف احترق ومن الذى جدده

تعرف كيفية احتراق مسجد السعادة للمرة الأولى وكيف جدد

دخل أبو بكر بن أوحد[1] من فراشى المسجد النبوى فى ليلة يوم الجمعة الأولى سنة ٦٥٤ الهجرية[2] إلى مخزن القناديل الكائن بالزاوية الشمالية لجدار المسجد الغربى ليخرج قناديل المآذن ووضع الشمعة التى فى يده فوق قفص أحد القناديل ونسى أنه ترك الشمعة فوق قفص القناديل ولما كان ذلك القفص قابلاً للاحتراق فاحترق فجأة وانتقل الحريق إلى الأقفاص الأخرى للقناديل ومن هناك سرت النار إلى حصير المخزن ثم إلى سقف المسجد الشريف وتركت المسجد فى ظرف ساعة فى حالة أليمة من شدة الحريق واللهيب، وأخبرت الإدارة الحكومية قبل أن تسرى النار إلى الأطراف فجاء أهل المدينة مع السادات والموظفين وبذلوا الجهود لإطفاء الحريق ولكن محاولاتهم ذهبت سدى فاحترق الحرم الشريف تمامًا ولم يمكن إخراج شىء من داخله.

ولم يصب الحريق المسجد النبوى وحده، إذ كان فى ذلك التاريخ فوق صندوق قبر النبى ﷺ إحدى عشرة قطعة غطاء بعضها فوق بعض ومصاحف شريفة وكتب نفيسة وأشياء ذهبية ثمينة فاحترقت كلها فظهرت عظمة الأنوار الإلهية كالشعلة الملتهبة.

وقد وقع هذا الحريق بعد نار الحجاز المنذرة وكان هذا الحريق إشارة إلى ما ارتكبه الخوارج فى داخل مدينة الرسول وسوء عاقبة الذين يتصرفون خارج الآداب الشرعية هؤلاء الخوارج الذين فصلت أحوالهم وجرمهم وعرفت فى الصورة العاشرة من الوجهة الثالثة وفى الصورة العاشرة من الوجهة الأولى، إذ

(١) اشتغل هذا الشخص قيمًا فترة ما.

(٢) ادعى بعض المؤرخين أن هذا الحريق وقع فى عام ٦٥٥ ولكن الحقيقة أنه وقع فى عام ٦٥٤.

ظهر بعض الزنادقة عقب نار الحجاز المنذرة، كما فصل فى الصور المذكورة، وأحدثوا بدعًا كثيرة خارج الأدب المشروع للشريعة الإسلامية.

وقد رأى أهل المدينة هذين البيتين قد كتبا عل جدران مسجد السعادة فملأهم خوفًا ورهبة وخشية.

لـم يحتـرق حـرم النبـى لحـــادث

يخشـــى عليـــه ومـــا بـــه من عـار

لكنمـــا أيـدى الروافـــض لامســـت

تلـك الرســـــوم فَطُهِّرَتْ بالنـــار

إن البيتـين اللـذين رؤيا بعد الحريـق على جدران مسجد السعـادة يدلان على أن الروافـض كانوا سببًا فى الحريق بسلوكهـم المشين إلا أن الأبيـات الآتية التى ذكرت بعد الحريـق بـ ٦٥٠ سنة توضح أسبـاب الحريق فى صورة أكثر وضوحًا.

وكان يقضى أن الروافض هم الذين يتحملون عذاب تلك النار، فأفهمهم بطريقة ظريفة حكمة احتراق مسجد السعادة وقائل الأبيات محمد أبو الهدى الجالس على صدر ديوان الأدب وزينة مجمع البلغاء.

تجـــاوز فى المقـــام حـــدود شـــرع

أنـــاس غافلـــــون عـــن الإشـــاره

أراد الحـــــق إعظامـــــًا لحقـــه

عقابهـــم فأرســـل عـــز نـــــاره

فقـــال بغيـــرة رب اهـــد قـومى

فـــرد النـــار عنهـــم للحجـاره

ولم يبق فى الحريق المذكور غير القبة[1] التى أمر بصنعها الناصر لدين الله لحفظ لوازم مسجد السعادة، فالصناديق التى كانت موجودة فى المخازن الموجودة فى خارج مسجد السعادة، وفى الجهات الأخرى من مسجد السعادة احترقت كلها.

وكانت القبة التى بناها الناصر لدين الله فى وسط المسجد وكان فى داخل القبة المصحف الشريف العثمانى، وبعض الصناديق الكبيرة التى صنعت فى السنة الثلاثمائة من الهجرة فنجت النصاديق المذكورة من النار بحرمة المصحف الشريف الذى كتبه حضرة عثمان بيده، وبعد أن انطفأت النار تمامًا كانت الأعمدة التى ظلت فى الساحة تهتز كأنها أشجار النخيل وتتمايل على جهتين وقد ذاب الرصاص الذى فيها وأخذت تسقط على الأرض واحدة تلو الأخرى.

وكان بين هذه الأعمدة أعمدة لم يذب رصاصها ولم تقع إلا أنها تأثرت من صدمة وقوع الأعمدة الأخرى وأخذت تسقط واحدًا تلو الآخر ولم يبق عمود يمسك سقف المسجد الشريف فوقع سقف المسجد الشريف فوق الحجرة المعطرة كما أن سقف الحجرة المعطرة وقع على مرقد النبى الجليل، وفى اليوم الثانى نظف من ساحة المسجد الشريف المحترق ما يستوعب عدد مصلى صلاة الجمعة وأبلغ الأمر إلى المستعصم بالله بن المنتصر بالله البغدادى وبعثوا المحضر العمومى الذى كتبه الأهالى راجين من الخليفة سرعة تعمير المسجد.

وبعثت الأشياء اللازمة من قبل المستعصم من بغداد مع قافلة حجاج بغداد مع الأمر بسرعة الشروع فى تجديد البناء فبدئ فى إجراء عمليات البناء وفكروا فى تجديد حجرة السعادة أولاً ورفع الردم الذى وقع فوق القبور الشريفة وتطهير

(١) وقد عمرت هذه القبة سنة ٥٧٦ وأطلق عليها اسم قبة الشمع، فهدمها السلطان عبد المجيد وأضاف ساحتها لساحة حرم السعادة الرملية فى سنة ١٢٧٧هـ.

داخل الحجرة المعطرة قدر الإمكان وفعلاً فهذا ما كان يجب عمله، ولأن سقف الحجرة المعطرة كان قد احترق ووقعت الحجارة والتراب وما يشبههما فوق القبور الشريفة، ولكن مهابة القبور الشريفة والرهبة منها حالت دون ذلك، فلم يتجرءوا عل تنفيذ ذلك؛ ومن هنا اجتمع مجلس شورى برئاسة والى المدينة منيف بن شيخة بن هاشم بن قاسم بن مهنى الحسينى وقرر فى هذا المجلس بموافقة أكابر المدينة كتابة عريضة وإرسالها إلى بغداد لتبليغ الأمر إلى الخليفة ولما كان ذلك فى أثناء استيلاء التتار على بغداد لم يأخذوا أى رد فتركوا مسجد السعادة على حالته تلك.

لما كان الضمير لن يقبل ترك مسجد السعادة فى حالة خراب كما أن ورود الإذن بخصوص تعمير المسجد قد تأخر كثيراً فعمر ورمم سادات المدينة وعلماؤها وأعيانها جهات الحجرة المعطرة الثلاث تاركين الجهة الشامية، وفهموا أن الحكومة البغدادية وموظفيها لن يستطيعوا تعمير مسجد السعادة لما ابتلوا بهجوم التتار فى المحرم الحرام من سنة ٦٥٦هـ، فراجعوا ملوك المسلمين الآخرين فى الأطراف، وكانت تعميرات الأهالى لحجرة السعادة مقتصرة على تغطيتها فقط، وقد بدئ فى هذا التعمير سنة ٦٥٥هـ فصنعوا غطاء من قماش يسمى محايس يمنية وغطوا فوقها، وكانت بطانة هذا الغطاء من قماش أزرق وكانت الستارة أربع قطع وكانت كل قطعة على شكل باب فضموا بعضها ببعض وألصقوها بلوحة خشبية مصنوعة من خشب يسمى الساج الهندى ولم تكن فى هذه اللوحة زينات ونقوش وكان اسم عاملها محكوكًا عليها.

إن أول من استجاب لطلبات الأهالى لتجديد المسجد الشريف صاحب مصر المنصور نور الدين على بن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحى وأرسل الأشياء اللازمة للبناء، ثم وصلت اللوازم التى أرسلها صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن المنصور بن عمر بن رسول فقرر بناء مسجد السعادة من جديد وشرع فى العمل بناء على أمر صاحب مصر وإشعاره وبعد أن بنيت الجهة القبلية

إلى باب السلام تولى ملك مصر المظفر سيف الدين محمود بن ممدود خوارزم شاه، بدلاً من منصور نور الدين على مظفر بن الملك عز الدين أيبك الصالحى للتعطيل، وبذل سيف الذين المعزى أيضا لإعمار مسجد السعادة جهده، فَبَنَى الجهة الشرقية من باب السلام إلى باب الرحمة والجهة الغربية من باب جبريل إلى باب النساء فى صورة متينة، إلا أنه مات فى نهاية السنة المذكورة مقتولاً فتعرضت مبانى الحرم الشريف للتعطيل ثانية.

وتولى حكم مصر والشام بعد سيف الدين الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى البندقدارى، ولما كان يرجو أن يكمل بناء مسجد السعادة عَيَّنَ جمال الدين محسن الصالحى من رجالات مصر لأمانة البناء وأرسله إلى المدينة المنورة فى رفقة ثلاثمائة وخمسون نفر من العمال المهرة كما دبر له المال اللازم والأشياء الأخرى وأرسلها إلى جمال الدين محسن دون تأخير.

عندما وصل جمال الدين إلى دار الهجرة بنى المسجد الشريف للمرة الثانية من باب الرحمة إلى باب النساء وجعل للجهات الغربية والشرقية والقبلية سقفين لطيفين فأعاد أبنية المسجد لحالتها الأولى.

وظل مسجد السعادة تسعة وأربعين عامًا إلى أوائل عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى على هيئة بناء الظاهر ركن الدين، وفى سنتى ٧٠٥، ٧٠٦هـ هدم محمد بن قلاوون الصالحى السقوف التى على يمين جهة الساحة الرملية ويسارها وجددها بأن جعلها سقفًا واحدًا[1] مثل الجهة الشمالية وبعد ٢٣ سنة أضاف عقدين إلى الجهة القبلية فوسع المسجد الشريف قليلاً ورمم الجهات التى فى حاجة إلى التعمير وجعلها فى غاية المتانة وذلك فى سنة ٧٢٩هـ ولكن العقدين اللذين أقامهما محمد بن قلاوون لحق بهما البلى ولم يعودا صالحين وخيف من سقوطهما بغتة فيكون ذلك سببًا فى هلاك الناس وهذا ما أزعج الناس وأقلقهم، ولما عرف الأمر الملك الأشرف برسباى بعث أمين البناء مقبل

(١) كانت الجهة الشمالية لمسجد السعادة وجهاته الأخرى مبنية بسقفين.

القائد وأعطى له مقداراً من النقود التى حصل عليها من حوالى جزيرة قبرص فجدد العقدين المذكورين كما جدد الأماكن التى فى حاجة إلى التجديد فى السقف الشمالى، وذلك فى سنة ٨٣٧هـ.

ولما لزم تعمير بعض أماكن المسجد الشريف بعد ٢٢ عامًا بعث الظاهر جقمق المصرى فى سنة ٨٥٣هـ المهندس أمير برد لتجديد سقوف الروضة المطهرة وسقوف الأماكن الأخرى المباركة كما أن الأشرف قايتباى جدد فى سنة ٨٧٩ بعلم شمس بن زمن بعض أماكن السقف الشرقى بعد هدمها إلى المئذنة الشرقية.

وجدد شمس بن زمن بعد سنتين سقف الجهة القبلية وبدل قبة الحجرة المعطرة[1] بقبة حجرية وهكذا رصن حجرة السعادة.

ولكن عندما ضاقت جهة مسجد السعادة الشرقية كثيراً أضاف إليها من الخارج ذراعين وربع ذراع فوسع حرم السعادة كما أن هذا الجدار قد سحب إلى الخارج عند التعمير الأخير أى فى عصر السلطان عبد المجيد قدر خمسة أذرع ولم يكن لذلك الوقت قبة فوق الحجرة المعطرة فكان بناء عمر بن عبد العزيز متصلاً بسقف مسجد السعادة على شكل سقف مستو ولكى ينفصل عن سقف المسجد الحرام أقيمت حظيرة من الآجر بارتفاع ذراعين، وحَوَّلَ الملك المظفر هذه الحظيرة إلى قبلة مثمنة فى أعلاها ومربعة فى أسفلها، وغلفها من أعلاها بألواح خشبية وغلف الألواح الخشبية بألواح رصاصية ثم غطاها بستارة من المشمع.

وفى سنة ٧٥٦ جدد تلك القبة المذكورة الملك الناصر حسن بن محمد قلاوون وجددها مرة أخرى بعد اثنتى عشرة سنة إلا أنها حولت فى سنة ٨٨٦هـ إلى قبة حجرية فى عهد الأشرف قايتباى المصرى.

(١) وقد قدر الأهالى هذه القبة فى ذلك الوقت وسموها القبة الزرقاء.

فى تعريف احتراق مسجد السعادة للمرة الثانية وكيفية وصورة تجديده

فى الليلة الثالثة، وعلى رواية فى الليلة الثالثة عشرة، من رمضان سنة ٨٨٦هـ وفى الثلث الأخير منها بينما كان رئيس المؤذنين شمس الدين بن الخطيب يهم بالطلوع على المئذنة الرئيسية والمؤذنون الآخرون إلى المآذن الأخرى للتهليل والتذكير والترحيم.

ظهرت فجأة على وجه السماء غيوم سوداء مخيفة وظهرت أصوات مدهشة كأنها طلقات المدافع فأصبحت دار العزة ونواحيها المتجاورة داخل نار ملتهبة، وزادت أصوات الرعود والصواعق بالتدريج فأصابت صاعقة شديدة مئذنة رئيسية فهدمت أعلى شرفتها والجهة الشرقية من المسجد الشريف وخربته وقتلت شمس الدين بن الخطيب وعشرة من الخدم والجماعة وكان من ضمنهم نائب خازن الحرم.

والصاعقة التى هدمت المئذنة الرئيسية وخربتها سرت نيرانها إلى سقف مسجد السعادة ومن هناك دخلت داخل المسجد بحيث أصبح مسجد السعادة فى وسط النيران فجأة.

وإن كان أغوات حجرة السعادة فتحوا أبواب الحرم الشريف وأخبروا الأهالى بالحادث فتكاثروا وتكاتفوا لإطفاء الحريق وبذلوا كل جهودهم، ولكن النيران الملتهبة قد أحاطت بجهات مسجد السعادة الأربعة بشدة حالت بين من يحاول أن يدخل إلى داخل المسجد ومع هذا فمن دخلوا داخل المسجد مضحين بأرواحهم اندفعوا خارج المسجد بطريقة شديدة حتى ينجوا بأرواحهم وزادت النار التهابًا واشتعالاً فلم يبق أمام الأهالى إلا أن ينسحبوا بعيدًا وأن يتفرجوا على النار.

بينما كان مسجد السعادة يحترق والنار تنتقل من هناك لهنا أخذ الأهالى ينقلون أشياءهم إلى خارج المدينة وفى نفس الوقت ينظرون إلى النار المخيفة نظرة حيرة ودهشة؛ ولم يخرُج من داخل المسجد إلا بعض المصاحف الشريفة فى أول الحريق، واحترقت الكتب النادرة القيمة والأشياء الثمينة وكل ما أهدى من قبل السلاطين والأسلاف من الأشياء الذهبية الثمينة ولم ينقذ إلا القبة التى كانت فى وسط الحرم الشريف واحترق عشرة أنفار من الذين دخلوا داخل المسجد بغتة لنقل بعض الأشياء وماتوا متأثرين من النار.

استطراد

اسم القبة التى ذكرت اسمها قبة الشمع وقد بنيت من قبل الناصر لدين الله لتوضع فيها لوازم حرم السعادة وهى الأشياء التى ترد منذ ثلاثمائة سنة حتى مصحف عثمان بن عفان كان محفوظًا فى داخل هذه القبة، ولما ساءت حالتها مع مرور الزمان وخربت، هدمها السلطان سليمان بن السلطان سليم حتى سُوّيت بالأرض وبناها من جديد فى تاريخ ٩٧٤هـ وكتب على القطعة الرخامية التى وضعت خارج جدارها الخارجى بخط جلى مُذَهَّب (لمولانا السلطان الملك المظفر ملك البرين والبحرين، السلطان سليمان أعز الله نصره)، ولما رأى محمد رائف باشا الذى عين لأمانة البناء من قبل السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٤هـ أن إبقاء القبة داخل مبانى حرم السعادة مضرًا، رفع تلك القبة من ساحة الحرم الشريف الرملية وأخرجها إلى خارج الجدار الشامى كما ذكر فى الصورة الثالثة من هذه الوجهة، وفعلاً قام بعمل مناسب. انتهى.

وقد اتسعت تلك النار واشتدت واشتعلت حتى إنها جعلت المسجد الشريف يتحول إلى بحر من شعل ولهيب حتى ظن الناس أنها ستحرق جميع حوانيت المدينة المنورة ومنازلها فهربوا إلى أماكن بعيدة، إلا أنها لم تسر خارج المسجد.

معجزة باهرة

رأى أحد الصالحين فى رؤياه أن بعض الجراد ينتشر إلى الأطراف وعقب ذلك شاهد ظهور شرارة النار وأن النبى ﷺ يقول: «إننى أمنع هذه النار وفعلاً منع انتشار النار إلى الأطراف، هذا ما نقله هذا الرجل الصالح»، وفعلاً قد رئى فى أثناء الحريق ظهور طيور بيضاء لا حصر لها وتمنع بأجنحتها انتشار النار خارج مسجد السعادة.

وقد رئيت تلك الرؤيا فى الليلة الثانية من رمضان أو الليلة الثانية عشرة ونقلت إلى أمير المدينة السيد الشريف زين الدين ابن الشريف زين بذاته أن الشخص الذى رأى الرؤيا من صلحاء العرب ونال حسن ظن جميع الناس.

حـرم النبى محمـــد فيمـــا مضـــى
مســـته مـــن أثـــر الصواعـــق نـــار
مـــا تلك صاعقـــة ولكـــن لمعـــة
نوريـــة قدحـــت بهـــا الأنـــوار
وســـرى زفيـــر المذنبـــين ملامســـا
لحبالهـــا فبـــدى لهـــا الآثـــار

وهذه الأبيات ارتجلها بداهة بسبب احتراق الحرم السعيد للمرة الثانية مفخرة العلماء وسند الفضلاء صاحب السماحة أبو الهدى أفندى ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا نظير لمثل هذه الموهبة الشعرية فى شعراء الأسلاف.

بعد انطفاء الحريق بعدة أيام أطفأ أهالى دار الهجرة النار الباقية فوق القبة الخضراء، وعجبوا لما رأوا أن القبة المزينة التى بنيت قبل الحريق فوق الحجرة المعطرة لم تحترق واحترقت فقط القبة الخضراء التى فوقها وذاب الرصاص الذى فوقها وأخذ يسيل فوق قبة حجرة السعادة ولكنه لم يضر الأشياء التى كانت فى داخل الحجرة المعطرة.

عبرة

والغريب فى الأمر أن القبة الكبيرة التى تحيط بالقبة الصغيرة والمخازن التى فى داخل مسجد السعادة والمصاحف الشريفة و ١٢٠ من الأساطين الحجرية ومقصورة مرقد السعادة ومنبر النبى المنير وصندوقه مصلى السعادة قد احترقت كلها وانمحت الأعمدة المتصلة بالحجرة اللطيفة المسعودة، ورفعت بعد الحريق الأشياء التى كانت فى الجهة القبلية من الحجرة المعطرة ونجت بعض أجزائها كالأشجار والبقايا الأخرى من الحريق إلى جهة الجدران الشامية وكتب الأمر إلى السلطان قايتباى المصرى وقد حزنت قوافل الزوار التى وردت من مكة وتكدرت.

ظهور السيل المروع بجوار مسجد الحرم

عند عودة الذين احترقت قلوبهم بنار احتراق مسجد السعادة كانت تنتظرهم مصيبة أخرى عند عودتهم إلى مكة المكرمة، وذلك بظهور سيل عظيم وكأنه بحار متلاطمة، ملأت الصحارى والأودية وفى النهاية ملئ حرم الكعبة المعظمة فهدم كثيرًا من المنازل والدكاكين وليس فى الإمكان إحصاء من غرقوا فمن قائل أنهم كانوا ثمانين غريقًا ومنهم من يقول مائة ووجدت جثثهم بعد انقطاع السيل، وروى أنه لم يقع مثل هذا السيل العظيم بعد الجاهلية.

تجديد مسجد السعادة وقصر عزة الوحدانية

لما أطلع السلطان قايتباى على تعرض الكعبة العلياء موئل الرحمة والوحدانية الحرم المحترم لهجوم السيل وخرابه حتى تحول كل ركن منه إلى عش بوم أو غراب، فعين سيفى سنقر الجمالى لأمانة بناء الكعبة المعظمة وشمس بن زمن لأمانة بناء المدينة المنورة وأخرجهما إلى الطريق وأمر بأن يبعث الأدوات اللازمة للبناء عن طريق جبل الطور وينبع البحر وهما فى مصر وأن يصاحب كلا من سنقر الجمالى وشمس بن زمن أربعمائة من مهرة العمال وكذلك الدواب اللازمة للنقل.

وتوجه سنقر الجمالى وشمس بن زمن نحو مكة المكرمة فى خلال شهر ربيع

الأول سنة ٨٨٦هـ، وحيثما نزلوا فى الطريق أو قضوا ليلهم وجدوا كثيرًا من الموظفين المكلفين بحمل الأدوات اللازمة للبناء كما أرسل موظفون لإحصاء المكلفين بقطع الخشب اللازم من حوالى المدينة المنورة والأخشاب التى وردت من المدينة المنورة ونواحيها ولوازم البناء قد تحولت إلى جبال راسيات وامتلأ الطريق البحرى والبرى بالأشياء اللازمة لتعمير الأماكن المقدسة، ورأوا أن أهالى كل بلدة وضيعهم أو شريفهم مشغولين بنقل مهمات البناء.

وبمجرد أن وصل شمس بن زمن إلى دار العز المدينة المنورة شرع فى هدم الجهة القبلية للمسجد ابتداء من المئذنة الرئيسية إلى باب السلام وهدم الجهة الشرقية إلى باب جبريل وأخرج الجهة الشرقية إلى خارج ما يقرب من ذراع ونصف ذراع ووسع محراب عثمان الشريف وجعله فى صورة جميلة وطبيعية وجدده، ورفع عليه قبة جميلة وقصر من طول الأعمدة ووضع عليها عقودًا من اللبن ورفع هذه العقود بالأخشاب وصنع عليها سقوفًا كاملة منتظمة، وصنعوا قبابًا عالية متينة على الأساطين التى بجانب محراب عثمان والأساطين التى تحيط بحجرة السعادة وغيروا الأعمدة التى فى مقصورة الحجرة المعطرة فى شكل جميل.

ولما كانت القبة التى أقيمت فوق حجرة السعادة أعلى من القباب الأخرى وضع مهندسو التعمير عقودًا محكمة فوق الأساطين التى على جوانب الجدار الشرقى الأربعة والشمالى حول هذه القبة وبنوا فوق تلك العقود أربعة أعداد من القباب المتينة وفتحوا منافذ بين المئذنة الرئيسية والعقود سالفة الذكر لتيار الهواء، عندما كانت تمد عقود القباب الجديدة أضيف للجهة الشامية لمثلث حجرة السعادة عمود وعندما كان يحفر أساس هذا العمود ظهرت علامة قبر، ولما حكم أمين البناء شمس بن زمن أن هذا القبر قبر حضرة (فاطمة) رضى الله عنها فجعل ذلك القبر داخل علامة خاصة، وبعد وضع هذه العلامة أخذ زوار الرسول ﷺ يزورون هذا المكان أيضا.

كان مكان باب المئذنة الرئيسية قبل الحريق فى الطرف الغربى أى فى المكان الذى يوجد الآن فأداره شمس بن زمن إلى جهة الشام وأسس صفة أمام الأبواب الجديدة ذات الأربع درجات خصصت هذه الصُّفة لاستراحة الأئمة يوم الجمعة إلا أن شاهين الجمالى عندما جدد المئذنة الرئيسية فى سنة (٧٩٨) هدم تلك الصفة وأعاد باب المئذنة إلى مكانه القديم أى الجهة الغربية.

والآن يجلس خطباء مسجد السعادة قبل الخطبة أمام هذا الباب، و بعد أن أتم شمس بن زمن عمليات المواقع المذكورة زين باب السلام بقطع رخام ملونة، وبنى قبتين رصينتين فى جهة الباب الداخلية فقوى ورصن ذلك الباب، ثم أمر بحفر أطراف الروضة المطهرة الأربعة وسوى أرضية المسجد وسطحها، وركز محل الصندوق الذى كان علامة مصلى النبى عمودًا وزين أعلاه بالحجارة الملونة الخاصة بالمحراب النبوى، وفرش أطراف الحجرة المعطرة بالرخام كشكلها القديم، ثم أتم عمليات المقصورة ومنبر السعادة والمحفل، وعقب ذلك أمر بصنع صفة صغيرة فى المحل الذى بين باب السلام ونهاية المسجد، ولكن الصفة التى فى الجهة الشمالية أعلى قليلاً من الصفة التى صنعها شمس بن زمن.

بعد ما تمت عمليات المحلات المشروحة هدم رباط الحصن العتيق الذى فى جهة باب السلام ثم هدم مدرستى دار شباك وجوبانية و بنى على ساحتيهما مدرسة جميلة باسم السلطان قايتباى، وبنى كذلك رباطا، وقد أقيمت مبانى هذه المدرسة والرباط المذكور فوق ثلاثين عقدًا وكانت ذات ثلاثة طوابق وكان بناء ضخمًا له ثلاثة أبواب، والنافذة التى تنسب إلى أسبق المهاجرين وأفضل أصحاب الدين حضرة أبو بكر الصديق أحد أبواب ذلك المبنى الضخم وهو الباب الذى استثنى عندما أمر النبى ﷺ بسد الأبواب الأخرى.

كان شمس بن زمن أمر ببناء عقود كثيرة على جدار مسجد النبى القبلى وهو يتصور أنه سيبنى الرباط والمدرسة المنسوبين إلى السلطان قايتباى فى الجهة القبلية لحرم السعادة، ولكنه غير فكره مؤخرًا وسد جميع العقود التى صنعت فى الجهة

القبلية ما عدا العقود التى تحاذى المحراب العثمانى، ولذلك زينها كلها بقطع زجاج ملونة بمختلف الألوان وشبك طرفها الخارجى بأسلاك نحاسية، ثم شرع فى تأسيس الرباط والمدرسة[1] سالفى الذكر وبنى مئذنة فى جهة باب الرحمة للمدرسة كما بنى حمامًا وعمارة وسبيلاً وطاحونة[2] ومخبزًا ومطبخًا للدشيشة[3] ووكالة، وأتم كل هذه الإنشاءات فى سنة ٨٨٨هـ وأبلغ الأمر إلى مصر وعرضه، وعاد ولكن السلطان قايتباى قد أبلغ أن تزيينات مسجد السعادة الداخلية وتذهيباته ليست منسقة وجميلة فأرسل فى سنة ٨٨٩هـ بعض النقاشين والرسامين من مهرة العمال والأشياء اللازمة لذلك فزينوا داخل الحرم الشريف فى صورة غاية فى جمال الصنعة، وأرسل من مصر مصاحف شريفة وكُتبًا نادرة لتقوم مقام المصاحف المحترقة والرسائل النفيسة، وهكذا أكمل وظائف عبوديته، وأرسل بعد مدة لأجل الرباط سالف الذكر عشرة أعداد من القدور الكبيرة وجميع أنواع لوازم الطبخ، وأصدر أوامر مشددة بخصوص إبطال المكوس وأنه سيبعث بدل المكوس ألف إردب من قمح لولاة المدينة سنويًا كما كتب أن القمح سيرسل سنة عن طريق ينبع.

مكوس

جمع مكس وهو أخذ الخراج من الأشياء التى تباع فى الأسواق والطرق ومن الأشياء التى تخرج من المعايير وشراء شىء أقل ثمنًا من الآخر ويروى أنه من مخترعات النمرود وقبله لم يكن هذه الأشياء موجودة.

وبعد ما أتم السلطان قايتباى آيات بره المشروحة، أولم وليمة لأهالى دار العز لم يروا مثلها من قبل، ثم اشترى من يد السادات المنازل التى تسمى عباسا وما حولها من المساكن والبيوت وبنى مكانها الرباط والوكالة سابقتى الذكر وأوقف لأهالى المدينة ألف وخمسمائة إردب قمح سنويًا واللوازم الأخرى وعين لكل

(١) واليوم تسمى هذه المدرسة «المدرسة المحمودية».

(٢) وإلى هذا الوقت لم يكن فى المدينة حمام ولا طاحونة.

(٣) حساء يصنع بطحن القمح فى طاحونة يدوية وهو يصنع من القمح المكسر مثل البرغل.

واحد من أهالى المدينة شهريًا سبع أرادب مصرية قمح وهى تساوى خمسة أمداد مدنية، كما عين؟ للمجاورين كل يوم قطعتين من خبز ومقدارًا كافيًا من طعام الدشيشة وجعل للأغنياء والفقراء معينات وافية لكل واحد حسب حاله، وصار عطاءه هذه الأشياء كل سنة عادة.

يقول الإمام السمهودى: إن السلطان قايتباى المصرى أنفق لأجل اللوازم والأدوات وأجور الدواب فى سبيل تجديد المبانى المقدسة مائة وعشرين ألف دينار.

وأخبر مؤلف روضة الأبرار: أنه أنفق مائتى ألف قطعة ذهبية خالصة العيار تقربا للرسول الله ﷺ وأتم عمليات تجديد وتعمير الأبنية المقدسة فى حوالى سنتين. وهذه الأخبار أخبار دقيقة.

ذيل

ولا ينكر أن ما قام به قايتباى المصرى فى إيجاد العمارات والوقف شىء لم يسبق إليه من قبل وأن هذا العمل تضحية عظيمة، إلا أنه فى عهد السلطنة العثمانية والخلافة الكبرى قد زادت المرتبات الحجازية وترقت وقد روعى جانب سكان المدينة بدرجة لو كان السلطان قايتباى حيًا وعرف ذلك لشعر بالخجل، وكل ما يقال عن خدمة الخلفاء العثمانيين للأماكن المقدسة بشهادة صفحات التاريخ وباعتراف أولى الأبصار.

وبناء على ما فصل فى الصورة الثامنة من الوجهة الأولى فإنه قد طرأ فى فترة ما تقصير وإهمال فى توزيع الصدقات فأعطيت مخصصات الأهالى أربعة أشهر وتركوا ثمانية أشهر مكشوفين؛ ولما سمع ذلك بعث بالموظفين المخصوصين لتحرى الأسباب المؤدية لذلك، ثم عين شيخ الحرم المتصف بالعدل والتزام الحق، فأعطيت مخصصات الأهالى شهرًا بشهر فدعوا للسلطان بالخير.

كان السلطان قايتباى المصرى أرسل سنة ٨٩١هـ شاهين الجمالى إلى المدينة المنورة ونصبه شيخ الخدم وتولى سماطًا وطعامًا وأودعه الأدوات والأشياء اللازمة لتعمير وتشييد مئذنة السعادة، وجددها فى صورة متينة رصينة جميلة بأحجار

منحوتة وبعد ست سنوات أصابت الصاعقة تلك المئذنة وخربت وأصبحت مأوى للبوم والغربان فهدمها حتى الأرض وجددها فى شكل منسق جميل بعد الاستئذان.

فى بيان عرض الخدمات والعبودية من قبل السلاطين المشار إليهم إلى المسجد النبوى

أوشكت بعض جدران مسجد السعادة وقبة حجرة السعادة ومبانى مسجد قباء على الانهيار ومالت إلى الانهدام والسقوط حتى أصبحت الصلاة فى داخل الحرم النبوى الشريف خطرًا، وبلغ الأمر إلى باب أصحاب القرار، ولما كان هدم حرم السعادة هدمًا كاملاً غير مستساغ شرعيًا طلب أن يسمح بهدم بعض الأماكن الآيلة إلى السقوط من المواقع الشريفة.

وقد وصل الطلب الذى أرسل من قبل سادات وأعيان المدينة باهرة السكينة فى خصوص الأمر المعروض فى الوقت الذى يعمر فيه سور المدينة المنورة فصدر الفرمان السلطانى إلى والى مصر أن يبلغ المكلفين بتعمير السور بهذا الأمر، وأن يعد الأدوات اللازمة والمبالغ الكافية والعمال ورؤساء العمال وأن يرسل سريعًا إلى المدينة المنورة، وأرسل الأمر السلطانى بعد أن كتب فى قلم الديوان السلطانى إلى والى مصر، ولما كانت الإدارة السلطانية الهامة ومطالبها قد فصلت فى كشف خاص وعرف بها الوالى المذكور فهيأ والى مصر المهندسين والمعماريين ورؤساء العمال والبناءين والمبالغ الكافية وأرسل جميع المطالب برًا وبحرًا بكل احترام وتعظيم كما بعث رسالة إلى أمناء البناء بها تعليمات خاصة. وتفقد أمين البناء كافة المواقع مع السادات والأعيان بناء على ورود الأشياء اللازمة والتنبيهات التى وردت من والى مصر.

وشيد وأصلح داخل الحجرة المعطرة وخارجها كما سبق أن عرف فى بحث حجرة السعادة ثم هدم باب مسجد السعادة المشهور بـ (باب السلام) وبنى مكانه بابًا عظيمًا من الرخام المجلى يجذب الأنظار وذلك فى سنة ٩٤١هـ.

وبعد هذا التعمير بست سنوات هدم ابتداء من الباب الذى يطلق عليه باب الرحمة إلى المئذنة الشكلية مع المئذنة والجدار الواقع فى الجهة الغربية وجدد كل هذه الأماكن فى صورة رصينة محكمة وذلك فى سنة ٩٤٧هـ، وبعد أن جدد هذا الجدار الشريف على الوجه المطلوب فهدم الجدار الشرقى الذى يمتد من باب النساء إلى آخر الحرم مع مئذنته وجدده.

وبنى قبة الشمع وبنى فوقها مكان خلوة عاليًا كما أسس بجانب مئذنة الشكلية واتصالها دار خلوة أخرى فشيد تلك المئذنة من جديد على شكل مآذن بلاد الروم؛ وذلك فى سنة ٩٤٨هـ.

وبعد أن تغير شكل هذه المئذنة أصبح الأهالى يذكرون مئذنة الشكلية باسم المئذنة السليمانية[1].

وبعد التعمير المذكور بست وعشرين سنة أخذت بعض أماكن الجدار الغربى لامعة الأنوار تخرب، فأمر السلطان سليمان ـ عليه رحمة الله المنان ـ بهدم الجدار الذى يمتد من باب الرحمة إلى آخر حرم السعادة وجدده كما جدد تلك الأماكن التى مالت للخراب وغير أعلام محراب النبى ﷺ والمنبر النبوى والمآذن التى هى من شعائر الدين المصطفوى، وأضاف إلى قناديل وشمعدانات الروضة المطهرة والحجرة المطهرة كثيراً من القناديل والشمعدانات الأخرى، فأضاء مسجد السعادة كقلوب الموحدين، ثم اشترى بيوت الديار العشرة المشهورة وأسس رباطًا خاصًا بالفقراء والغرباء.

كما بنى عشرين رباطًا أخرى غير هذا الرباط إلا أن كلها قد اندرس وزال؛ وخرج رباط الديار العشرة من شكل العمارة وجعل مكانه مخازن لوضع لوازم مسجد السعادة ودائرة خاصة لإدارة شيخ الحرم وسبيلاً وحديقة جملية.

وليس إشراف رباط الديار العشر على الخراب حالة يؤسف عليها حالته هذه

(١) يطلق على هذه المئذنة الآن العزيزية.

أنفع لمسجد السعادة؛ من حالته الأولى؛ لأنه قد فتحت فى الجدار القبلى للمسجد الشريف نافذة كبيرة تحاذى نافذة المواجهة الشريفة وهذا ما زاد حرم السعادة جمالاً على جمال؛ ولو كانت أطراف المسجد كلها حديقة لما بقى أثر للعفونة ولما وجد فى مسيرة الكائنات مكان أكثر بهجة وانشراحًا من هذا المكان.

عندما جدد باب الرحمة كتبت على يمينه ويساره التواريخ بعد البسملة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أمر بتجديد هذا الباب الشريف سيدنا ومولانا السلطان الملك المظفر؛ السلطان سليمان بن السلطان سليم ابن السلطان بايزيد خان، ابن السلطان أورخان خان ابن السلطان عثمان خان، خلد الله ملكه وأعز نصره، بمحمد وآله وذلك فى شهر رمضان المعظم سنة سبع وأربعين وتسعمائة، كما كتب على يمين ويسار باب السلام الذى صنع مجدّدًا أيضا بعد البسملة.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠)

اللهم أدم له العزة والتمكين والنصر والفتح المبين بقاء عبدك ومولانا السلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم خان بن بايزيد خان بن السلطان محمد ابن السلطان مراد ابن السلطان محمد بن السلطان بايزيد ابن السلطان مراد بن السلطان اورخان بن السلطان عثمان خان، أعز الله نصره وخلد الله ملكه وختم بالصالحات أعماله بمحمد وآله وصحبه وسلم.

وذلك مع تاريخ سنة إحدى وأربعين وتسعمائة فى شهر صفر، كما كتب على الجهة اليمنى لهذه التواريخ مولانا السلطان الملك المظفر سليمان شاه بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين، خلد الله ملكه.

شعر

رســـــــول الله إنـــى مستجيـــــــر

بجاهـــــك والزمـــــان لـــه اعتداء

وجاهـــك يا رســـول الله جـــاه
رفيـــع مـــا لرفعتـــه انتهـاء

كتبت هذه القطعة، كما كتب على رواقها الخارجى الآية الكريمة الجليلة.

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٤).

والآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وبعد ذلك كتب النعت الشريف

وظنـــى فيـــك يـا طـــه جميـــل
ومنـك الجـــود يعهـــد والسخـــاء
وحاشـــــــا أن أرى خزيًـــا وذلا
ولـــى نســـب بمدحـــك وانتمـــاء
وكـــم لـك يـا رســـول الله فضـــل
كقـــدر الأرض لابـــل والسمـــاء
وكـــم لـك معجـــزات ظاهـــرات
كضـوء الشمـــس ليـس لـه خفـــاء

وفوق هذا البيت كتب على طاق الرواق المذكور حديث «من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى»، صدق رسول الله ﷺ وعلى أصحابه الطاهرين.

وطهر محمد باشا، وهو من وزراء السلطان سليمان بن السلطان سليم، مجرى عين الزرقاء ووكل فى ذلك السيد أحمد بن سعد الحسينى نقيب أشراف المدينة المنورة وطلب منه راجيًا أن يعمر ويحيى تلك الأماكن، وأخذ السيد أحمد أفندى بستان عيينة المشهور وعقب ذلك بئر الخاتمى وهى فى جهة قباء باسم محمد

باشا وأجرى مياه هذه الأماكان إلى مجرى عين الزرقاء وحتى يزيد من مياهها قد حفر عدة آبار أخرى فوسع وطهر مجرى العين المذكورة إلى باب الرحمة، وصنع سبيلاً بالقرب من باب الرحمة، ومن هنا فتح طريقًا إلى حى الأغوات وجعل منهلاً فى ذلك الحى ينزل إليه بسلم والماء الذى أوصله إلى هذا المنهل، أجرى مياه هذا المنهل إلى حوش المغاربة بحفر مجرى خاص، وصنع فى داخل أربطة الديار العشر والمغاربة سبيلاً لكل واحد منهما كما صنع حمامًا بجوار القلعة وطهر بئر على وعمقها فى النهاية.

بعدما انتهى سيد أحمد أفندى من هذه الأعمال، بنى سبيلا أمام مسجد قباء وميضأة ثم اشترى بستانًا أوقفه للحمام، ثم بنى بيتًا فى منصة بئر خاتمى ثم أمر بحفر حوض بالقرب من هذا البيت، ثم اشترى البيت المتصل بهذا البيت ووضع فى طرف من أطرافه محرابًا فجعله على شكل المسجد، ووقف المنزل الذى يمتلكه لإقامة الفقراء والغرباء واشترط ذلك، وكل ذلك رعاية للصاحب القديم لذلك البيت وذلك فى سنة (٩٩٢هـ) لأن ذلك المنزل كان المنزل السعيد الذى كان يسكن فيه الصديق الأكبر.

ولكن لشدة الأسف أن مدير الحرم الشريف جدد مسجد أحمد أفندى باسم محمد باشا والنزل الذى بنى باسم سيد أحمد أفندى ثم وقف، جددهما وجعلهما مسكنًا لأهله وترك الفقراء المجاورين فى العراء وأظهر دناءته إذ بنى على الساحة التى تنسب للصديق الأكبر حمامًا وميضأة وذلك فى سنة (١٢٥٤هـ).

وكان السيد أحمد أفندى قد اشترى البستان الذى أمام حمام محمد باشا وبنى أمامه حوضًا يملأ بمياه عين الزرقاء وحصر المياه الزائدة لهذا الحوض لرى البستان المذكور ثم وقف سواء أكان البستان أو الحوض لحمام محمد باشا.

إن الحوض الذى حفر مقابل بستان حمام محمد باشا كان غاية فى الكبر وبما

أنه فى طرف الساحة الواسعة التى ينصب عليها قوافل محامل مصر والشام خيامها كان أهالى القافلة يستخدمون هذا الماء ومازالوا يرتوون منه.

ولا يعرف الآن ما حدث لحمام محمد باشا إلا أنه يوجد فى زماننا فى المدينة المنورة حمامان يستخدم أحدهما فى دائرة الترجمة للحرم النبوى وهو حمام أحمد نظيف أفندى فى المناخة والنزل الذى اتخذ مستشفى للعساكر النظامية السلطانية مقابل هذا الحمام، وأحد الحمامين المذكورين فى حى حارة الزوران التى تلاصق السور الداخلى لمسجد السعادة من الجهة القبلية، وهو الحمام الذى ينسب إلى الشهيد نور الدين. انتهى.

لقد أقام السيد أحمد أفندى أيضا مستشفى على اسم محمد باشا خاصة لعلاج غرباء دار السكينة، ولقد كفل لها الأطباء والخدم اللازمين وأوقف لها مقدارًا كافيًا من العقارات والأملاك، ومع مرور الأيام انهارت أكثر أماكن هذه المستشفى وخربت؛ وإن لم ترمم أبنيتها لقد خصص فى سنة ١٢٥٥هـ جراية خبز لمرضاها، ومن هنا كان المرضى الذين ملوا من حياتهم لشدة حاجتهم وامتداد عللهم يدخلون فى هذه المستشفى حتى يسلموا أرواحهم فيها.

وقد عمر والد السلطان كثير المحامد الأماكن الخربة من هذه المستشفى وألحق بها صيدلية ومخزن أدوية وخصص لها الأدوية الطبية واللوازم الجراحية كما هيأ لها ما يلزمها من أطباء وجراحين وصيادلة والخدم، وكانت هذه المعدات كافية لعموم أهالى المدينة والحجاج، وبهذا أحيا أهالى المدينة من هذه الجهة أيضا.

وقد أدخل السلطان مراد خان الثالث بن السلطان سليم خان الثانى شونة مخزن ينبع البحر داخل السور حفظًا لها من هجمات العربان وأسس مخزنًا آخر لوضع ما خرب من الجدار القبلى ومحرابه وأصلح جدرانه الأخرى وشيدها فى غاية من المتانة والإحكام وأعاده إلى حالته الأولى، كما عمر وأحكم المرفأ الذى على شاطئ البحر والذى يبلغ عرضه ٥٣ ذراعًا وطوله ٢٤ ذراعًا والذى كان

أشرف على الانهيار، وخصص بعد ختام هذه الأعمال صرة سلطانية تحتوى على أربع و أربعين قطعة ذهبية على أن يكون أحد عشر ألف دينار منها لأهل مكة وباقيها لسكان دار السكينة المدينة المنورة، وذلك كل سنة، كما عين بعد ذلك لجيران رسول الله أربعة آلاف إردب قمحًا وللحجاج الذين انقطع بهم الطريق خمسمائة إردب قمحًا وذلك فى سنة (٩٨٦هـ) وكانت هذه الذخيرة ترسل من مصر إلى ينبع ومن هناك إلى المدينة المنورة وتوزع على الأهالى المحتاجين وتقسم عليهم.

وقد جدد السلطان المشار إليه فى سنة ٩٨٨هـ مطبخ الدشيشة «وهى عبارة عن نوع من الحساء المصنوع من القمح المدشوش» وسر خدمته بإعطائهم قطعة ذهبية يوميًا كما سر طباخيه بإعطائهم إردب قمح فوق القطع الذهبية؛ وذلك فى سنة ٩٨٨هـ.

وعانى فى هذه الفترة أهالى المدينة فى محلاتهم مضطربين من العطش، ولما أبلغ الكيفية إلى مسامع السلطان أسس فى القرب من باب المضر سبيلاً وخصص لكل واحد من خدمه ونظاره مقدار ستين درهمًا من النقود وعين لهم سنويًا خمسين اردبًا قمحًا لكل واحد منهم وأمر أن يملأ هذا السبيل يوميًا بواسطة السقائين ليروى عطاشى المسلمين وذلك فى عام ٩٩٠هـ.

وبعده بعام خصص لأغوات الحرم الشريف (حب الجراية) يوميًا كما خصص لعبيد عين الزرقاء (حب الجراية)[1] يوميًا وعين لفقراء المجاورين والعلماء الصالحين ألف إردب حنطة سنويًا وكان ذلك فى سنة ٩٩١هـ عندما كان عدد أغوات الحرم الشريف سبعة وخمسين وعبيد عين الزرقاء سبعة عشر نفرًا.

وكان المسجدان الشريفان اللذان لأبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ أشرفا على الخراب وحرم الزوار الكرام من شرف زيارتهما،

(١) كان يطلق على الخبز المصنوع من الحبوب المرسلة من مصر حب الجراية.

ولما وصلت الكيفية إلى أسماع السلطان أمر بترميم وتعمير هذين المسجدين كذلك ما بجوارهما من الأربطة القديمة الخربة، وجامل خدمها بأن خصص لهم عامة رواتب كافية، وذلك فى سنة ٩٩٤هـ، وفى خلال تلك السنة كان الجدار الذى فى جهة باب النساء من حرم السعادة قد مال للسقوط وأصبح تعميره واجبًا ورُجى من السلطان صاحب القرار أن يأذن بإجراء ما يقتضى عمله، وبناء على الأمر السلطانى الصادر هيئ الموظفون والعمال والأدوات اللازمة للبناء وأرسلوا عن طريق مصر القاهرة، وعندما وصل أمين البناء إلى المدينة المنورة وتفقد المسجد الشريف بناءًا على آراء السادات والأهالى، وقرر أن يهدم الجدار الشرقى للمسجد ابتداء من باب النساء إلى نهاية حرم السعادة، ولما استلم القرار من قبل العلماء هدم المكان المذكور من أساسه وأبلغ وجوب تجديده إلى عتبة الباب العالى السامى، ووافق هذا القرار رأى وأفكار السلطان، وبناء على ذلك أبلغ الأمر كتابيًا إلى أمين البناء وطلب منه الإسراع فى تجديد المكان المذكور وفقًا لإرادة الأهالى الكرام كما أرسل قطعة من التاريخ محكوكة على رخام، وبين فى الرسالة الكتابية أن وضع هذا التاريخ فى مكان مناسب وإلصاقه من بعض الأوامر السلطانية.

وشرع أمين البناء بناء على التعليمات السلطانية العالية فى أداء مهمته وفى ختام العمليات وضع حجر التاريخ فى ركن من أركان الجدار المجدد، وبين الأمر وأبلغه إلى مركز السلطنة ولأجل ذلك أرسل لأمانة البناء وسائر الموظفين وأعيان البلدة خلعًا فاخرة وعطايا وفيرة وذلك فى سنة ٩٩٥هـ.

وكان طول الجدار الذى جدد ٩٥ ذراعًا وارتفاعه ١٧ ذراعًا والتاريخ الذى أرسل من باب السعادة لإلصاقه على الجدار المذكور يتضمن الآتى: «اللهم خلد ملك من جدد هذا الجدار المحترم وهو مولانا السلطان الأعظم والخاقان الأكرم، سلطان القبلتين وخادم الحرمين الشريفين، السلطان مراد خان».

تاريخه:

جدد جدار المسجد النبوى، السلطان مراد لوجه الله، سنة خمس وتسعين وتسعمائة فى سنة ٩٩٥.

وبعد سنة خمس وتسعين ببضع سنين تعرضت ثلاثة صفوف من سقف حرم السعادة للضرر إذ أصابها حريق ورعود فاكْتَسَتْ منظرًا قبيحًا مخيفًا، واستحال أداء الصلاة فى تلك الجهات، وإن إبقاء حرم السعادة على حالته الحاضرة إلى أن تنهار تلك الأسقف كليًا سيؤدى إلى هدم وخراب حجرة السعادة، ولما كان هذا غير جائز أبلغ الأمر بمحضر كتابى إلى الباب العالى، ودرس الموضوع طويلاً فى الباب العالى، وبعد أن خمن الأضرار التى ستتسبب عن هذا الأمر فى المستقبل والخسائر التى سيؤدى إليها، عرض الأمر على السدة السلطانية فأمر السلطان بإرسال أحد الأمراء الصالحين، بعد تعيينه لأداء هذا العمل وتدبير الأدوات اللازمة التى تقتضيها المهمة وإرسالها سريعًا إلى دار العز المدينة المنورة وأبلغ هذا الأمر إلى والى مصر وأرسل الأمر الصادر من قبل السلطان أيضا إليه، فأرسل أمين البناء المعين مع المهمات التى دبرت ومهرة العمال إلى دار السكينة.

ولما وصل الموظفون الذين أرسلوا من مصر إلى المدينة المنورة تفقدوا الأماكن التى تحتاج للتعمير والتجديد من حرم السعادة وذلك مع موظفى الحكومة فى المدينة وسادتها، وبناء على الإرادة السلطانية وآراء العلماء والأهالى قوضت ثلاثة صفوف من الأسقف التى اقتضى الأمر هدمها، وبنى مكانها ثلاثة صفوف من القباب الخشبية بمبان حجرية.

وكتب فوق الجدار الشامى الذى فى ناحية الساحة الرملية: هذا تاريخ بناء الروضة الشريفة روضة النبى خير العباد قام بتجديده السلطان مراد، فى سنة ٩٩٩هـ.

وأبلغ الأمر بواسطة والى مصر إلى عتبة صاحب القرار، ومن هنا جزا السلطان من يستحقون المكافأة بالعطايا السلطانية وبالخلع الفاخرة التى لا مثيل لها.

والثلاثة صفوف التى جددت كان كل صف منها يتكون من تسعة قباب، وفتحت فى محاذاة الصف الأول من القباب وفى التقاء سطح حجرة السعادة هوايتين لتلطيف جو حرم السعادة فى أيام الصيف وتبريده وقد اكتسب مسجد السعادة بهاتين الهوايتين زينة أخرى.

وقبل أن تختتم عمليات بناء القباب المذكورة، صدرت الإرادة السلطانية السنية لشراء ساحة كبيرة فى غاية الوسع لبناء عمارة منسوبة لاسم السلطان السامى، وبعد إتمام عمليات مسجد السعادة قد دبروا الساحة فى خارج المدينة وبنوا هناك عمارة كبيرة عظيمة جميلة كما أسس فى قرية قباء رباطًا خاصًا بالفقراء وعين له الموظفين اللازمين وذلك فى سنة ٩٩٨هـ ولم يسمع أهالى الحرمين حتى ذلك اليوم عن مثل هذه العمارة ولم يروا مثلها.

وقد بنيت هذه العمارة بطلب الأهالى وإرادتهم وأنشئ لإسكان خدمها أربعة عشر بيتًا مستقلاً، فأطلق أهالى المدينة المنورة على تلك العمارة التكية المرادية لإظهار مدى سرورهم القلبى وابتهاجهم.

وعندما يقال لهذه العمارة تكية، فلا يفهم أنها تكية عادية للذكر والفكر، والتى يطلق عليها خانقاه، ولم تكن هذه التكية من التكايا التى نعرفها بل كانت عمارة خاصة بجميع الأهالى.

وكانت ثمانية أو أربعة عشر منزلاً خاصة لسكنى المتزوجين من الخدم وستة فيها خاصة لسكنى الخدم العزاب.

وكانت تلك التكية فى ناحية باب المضر وخارج السور وكان لها مخزن كبير ومطبخ ومخازن صغيرة متعددة وفى داخلها طواحينها وعدة مخابز وحجرات لوضع اللوازم الأخرى، وكان يخبز الخبز كل يوم فيها وكانت تصنع الحلوى فى ليلتى الجمعة والاثنين أكثر مما اعتيد.

ويطبخ فيها الأرز والزردة (وهو طعام حلو يطبخ بالزعفران) ويوزع على الفقراء، وكانت هذه العمارة تعد مبرة خيرية لا مثيل لها فى البلاد العربية كما كانت تقدم ما تقوم به حياة كل الفقراء من الأهالى.

وكانت الأطعمة التى تطبخ فى التكية المرادية نفيسة وكثيرة بدرجة حتى إنها كانت توزع فى ليلتى الاثنين والجمعة ما عدا الغرباء والفقراء على جميع أهالى المدينة، وبناء على الروايات الموثوقة أن فقراء أهالى المدينة كانو يُصفُّون ما يحصلون عليه من التكية من طعام الأرز ويتندمون بزيته عدة أيام، وقد اشترى السلطان فى مصر عدة قرى وأوقفت محاصيلها على تلك العمارة، وكان يرسل من مصر سنويًا محاصيل تساوى خمسة وعشرين ألف قطعة ذهب.

وبناء على المعلومات التى أفرها مؤلف لطائف الأخبار من مؤرخى مصر أن القرى التى شريت لأجل التكية المرادية ووقفت لها هى: لفلا، ظاهرية[١] سُبك الأحد، شبرا زنجى[٢]، طنان، كفر زريق، طوخ الملقة، سد طنان، سهرا[٣]، سندوب، زريبة، بهداد، بلوصوره، سفط الخمارة، كفر حيدره، قيس، انسوح، ريده منية سمنود، أبو الحسن[٤]، كوم برا، تهيا[٥]، بلقيا، دنديل، حكامنا، دشنا، ضوابط، أهناس المدينة أهناس الخضراء، وكانت الحكومة المصرية تُدرُّ من محاصيل هذه القرى واحدًا وعشرين ألف إردب من الحبوب وترسلها إلى بندر السويس ومن هناك إلى ينبع بواسطة نوع من المراكب تسمى سبنودا من هناك إلى المدينة المنورة محملة على الجمال وكانت هذه الحبوب وقف دشيشة التكية المرادية.

إلى هذا التاريخ لم تكن فى المدينة المنورة مؤسسة خيرية مثل هذه وكان أهل المدينة محتاجين لمثل هذه التكية حقًا لأجل ذلك يهدى أهل المدينة إلى الآن لروح السلطان المغفور له المشار إليه الفاتحة بكل إخلاص.

(١) تتبع هاتان القريتان ناحية البحيرة لعلها «نكلا، ظاهرية».

(٢) كانت من توابع ناحية المنوفية.

(٣) كانت تتبع ناحية القليوبية.

(٤) كانت هذه القرى من نواحى الدقهلية.

(٥) كانت هذه القرى داخل نواحى بهنساوية والوجه القبلى.

نكتة لطيفة

كان قد خصص للبغلين اللذين يستخدمان لإدارة الطاحونة التى فى داخل العمارة المرادية إردبين من الشعير يوميًا لكل واحد منهما، ولما كان إردبان من الشعير اللذان خصصا بالإرادة السلطانية كثيراً جداً، سأل رجال الدولة السلطان قائلين: «ما الحكمة فى تخصيص إردبين من الشعير يوميًا لكل واحد من البغلين مع أنكم تعرفون أن إردبين من الشعير يكفيان لإطعام ثمانية وأربعين بغلا فى اليوم؟ فأجابهم قائلاً: «يأتى يوم لا يقدم لهذين البغلين المسكينين من هذين الإردبين حتى حفنة واحدة» وفعلاً هذا ما حدث فيما بعد.

تأسف

ولم تبق من العمارة العظيمة المذكورة فى زماننا غير خرابة وليس فيها قطرة ماء فى خزانة سبيلها فضلاً عن المأكولات والمشروبات، وكان قد اتخذ ركن فيها قبل يومنا هذا مدرسة يعلم فيها ثلاثة أو خمسة من الأطفال، والآن يقيم فيها العساكر السلطانية من ركاب الهجين.

وكان السلطان مراد المرحوم قد أسس بجانب التكية مدرسة مشترطًا أن يدرس فيها خمسون طفلاً سنويًا، ويأخذ مكان الأطفال الذين يحفظون القرآن الكريم ويغادرونها أطفال آخرون وما خصص لمدرسى هذه المدرسة وطلابها من المخصصات لإعاشتهم والملابس كانت توزع عند حلول مواعيدها.

وعقب ختام بناء تلك المدرسة بنيت زاوية، وعمرت بعشرة من المتصوفة وشيخهم، وخصصت لهم الأشياء اللازمة لإعاشتهم من العمارة سالفة الذكر ثم أضيف لها عدد من الخبز لتحسين أحوالهم وذكر الله فيها صباحًا ومساءً.

وفى ختام مبانى تلك الزاوية المذكورة وظف من الصلحاء أربعون نفسًا نفيسًا وخصص لكل واحد منهم اثنى عشر دينارًا سنويًا، وكان هؤلاء الصلحاء

يجتمعون فى داخل الروضة المطهرة يتوغلون فى تلاوة سورة الأنعام ويهدون أجر ذلك للروح المحمدية اللطيفة وكانوا يتوسلون بالروح النبوية من أجل نصرة الجنود المسلمين، كما وظف مؤخرًا ثلاثون فقيهًا وخصص لكل واحد منهم قطعتين من الذهب سنويًا وكلفوا قراءة القرآن فى داخل الروضة المطهرة كل يوم، وهؤلاء أيضا كانوا يرفعون أياديهم بالدعاء ويهبون أجر مثوبة قراءاتهم لأرواح سلاطين المسلمين.

وقد رتب كذلك ثلاثون من قراء أجزاء القرآن بشرط أن يختم القرآن فى داخل الروضة كل يوم مرة، على أن يأخذ كل واحد منهم سنويًا ثلاثة دنانير ونصف دينار كما عين مائة نفر لأداء الحج لابسين ملابس الإحرام واقفين على جبل عرفات فى مواقيت الحج على أن يأخذوا سنويًا عشرة دنانير، وكان قراء أجزاء القرآن يختم كل واحد منهم القرآن على الوجه المشروع كما أن الذين وظفوا لأداء الحج كانوا يلبسون ملابس الإحرام فى مواقيت الحج ويسافرون إلى مكة وكانوا يواظبون فى أثناء وقفة عرفات على الدعاء لترقى الدولة وسعادتها ولزيادة شوكة الدولة العثمانية.

وكان السلطان مراد وظف خمسة من المدرسين من المذاهب الأربعة وخصص لهم رواتب كافية، بشرط أن يكون أحدهم من خطباء الشافعية وكان لكل واحد منهم وظيفة تدر عليه أربعين درهمًا سنويًا.

ولا تقتصر الخدمات التى أداها مراد الرابع للبلدة النبوية المسعودة على هذا، بل رمم سطح الحرم النبوى الشريف كاملاً لاقتضاء الأمر ذلك، كما جدد آجر الروضة المقدسة، وغير صبغة جدران مسجد السعادة لتوأم حرم الجنة الأربعة وأمر بطلاء عدد أسطوانات مسجد السعادة البالغة ثلاثمائة أسطوانة على لون واحد.

والفنانون الذين استخدموا فى طلاء هذه الأعمدة بشموس ونجوم كل واحدة

منها تختلف عن الأخرى قد أظهروا فى عملهم هذا مهارة جعلت الذين يدخلون إلى حرم السعادة السعيدة يرتعشون من شدة التعجب ويتحولون إلى الجدران الساكنة ويبتهلون.

من مؤلف طبقات ابن سعد نقلاً عن محمد بن عبد الرحمن أن محمد بن عبد الرحمن قال: «كان أبى حاضرًا عندما انهار الجدار الذى فى مربع السعادة فى عهد عمر بن عبد العزيز؛ وكان يقول: عندما انهار جدار مربع قبر السعادة كنت بجانب حجرة السعادة، فنظرت من مكان السقوط داخل مربع القبر الجليل. كان من بين مرقد السعادة وحجرة عائشة ـ رضى الله عنها ـ المنيرة قدر شبر واحد، فأنا أيضًا أصدق أن نعش النبى ﷺ قد وضع إلى اللحد الشريف من الناحية القبلية وأؤيد تلك الرواية، وبما أن روح النبى ﷺ قبضت فى هذا المكان فالمكان الذى توفى فيه أشرف بقاع الأرض فمن هنا يؤخذ أنه ﷺ دفن فى هذا المكان لذلك». انتهى.

بعد أن كنس سطح حجرة السعادة وأخرجت أنقاض الجدار المنهار إلى الخارج شرع شمس بن زمن فى بناء الأماكن المنهدمة ذاكرًا اسم الله وجعل عرض الجدار الشرقى فى عرض أساسه الأصلى يعنى فى سمك ثلاثة أذرع كذلك ذراعين ونصف من السمك، وأدخل العمود الملاصق للجدار الشامى فى داخل الجدار المذكور، ومن هنا جاء سمك الجدار الشامى لمربع قبر السعادة أكثر سمكًا من جدران الجهات الأخرى وأصبحت جدران جميع الجهات يختلف بعضها عن البعض فى السمك، وكان اليوم الذى بدأت فيه العمليات يوافق السابع عشر من شهر شعبان من السنة المرقومة.

ولما كان ما بين الجهة الغربية والشرقية على شكل طولى، وكان بناء القبة عليه يرى غير قابل للتنفيذ ولكن بما أن قرار اقتضاء إنشاء قبة فوق مربع القبر الجليل كان قطعيًا والتحرك خارج هذا القرار غير ممكن فقد جعل شمس ابن زمن ـ بناء

على تصويب المهندسين ورأيهم ـ حجرة السعادة مربعة وذلك بفتح باب من جهة قدمى السعادة من الحجرة المعطرة، فى ارتفاع اثنى عشر ذراعًا، يعنى قد ضيق وقصر طول الجدارين والباب المفتوح وجعل داخل مربع حجرة السعادة فى شكل مربع ولما بنى الجدار الشامى بأحجار منحوتة شيد فوقه قبة فى ارتفاع ثمانية عشر ذراعًا آدميًا عن سطح الأرض وفتح فى وسط الجدار الشامى بابًا صغيرًا وأدخل الحجرة الشريفة ابن أخيه وصهره لتسوية ما فوق القبور الثلاثة، والرجلان اللذان أدخلا داخل قبر السعادة قد فرشا فوق القبور الثلاثة رملاً على شكل ظهر السمك مثل قبور بلاد الروم. انتهى.

بعد أن وقف السلطان محمد خان القرى المصرية ضعف مرتبات الحرمين حسب الترتيب، ثم أرسل إلى الروضة المطهرة سجادة منسوجة من الحرير وسجادة أخرى لتفرش على محراب النبى وكسا مرقد السعادة بكسوة مزخرفة جميلة وذلك فى سنة ١٠٠٣هـ وكانت فوق الكسوة الشريفة التى أهداها لمسجد السعادة، قد كتبت الكلمة المنجية الشهادتان والصلاة والسلام وأسماء أصحاب النبى الكرام نَسْجًا، كما رسم فى ذيلها اسم السلطان وما اشتهر به من الألقاب.

وأراد السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان الثالث أن يلاطف ويجامل أهالى الحرمين الشريفين من جديد، فوحد إدارات دشيشة الحرمين فى سنة ١٠١٣هـ وأعطى نظارتها لشخص اسمه داود أغا وأحال الإشراف على حسن تسوية الأمور وتمشيتها فى جميع ما يتعلق بهذه الإدارات لمحافظ مصر إبراهيم باشا، وسبب هذه التعيينات وحكمتها ما عرف من ضياع حقوق سكان مدينة الرسول بسبب عدم اهتمام محافظى مصر ووقاحة نظار الدشيشة وطمع مشايخ العربان إذْ كانت الدشائش التى اعتيد إرسالها إلى أهالى الحرمين الشريفين مثل الدشيشة الكبرى، والمرادية والمحمدية والخاصكية ردشائش الأوقاف وأخرى من غلال الجراية والصدقات فضلاً عن عدم إرسالها فى وقتها كانت المقرَّرات ترسل ناقصة وغير منتظمة ومن هنا تعرض أهالى الحرمين لمضايقات شاقة، ولما

وصلت هذه الفوضى لأسماع السلطان أدركته الغيرة وأراد أن يقف دون هذه الشرور وأن ينقذ أهالى البلدتين الطيبتين من بلاء القحط والغلاء فألغى نظارات الدشيشة كلها، ورفعها ثم أمر بأن تضم جميع النظارات تحت نظارة واحدة بعد أن خصص ألف إردب قمحًا لهذه النظارة كما عُرف صورته فى الأمر العالى الذى سيأتى فيما بعد، وهذا التصرف دليل واضح على ما أولاه السلاطين العثمانيون من الرعاية والحرمة نحو الحرمين الشريفين ولا شك أن رعاية هذه البقاع المقدسة وتطييب خاطر سكانها فرض عين على العامة والخاصة ولاسيما الملوك العظام.

صورة الأمر المرسل إلى المحافظ إبراهيم باشا من قبل السلطان و الخاصة بنظارة الدشيشة الكائنة فى مصر:

هذا الحكم الصادر لإبراهيم باشا وزيرى فى محافظة مصر، لما كانت مكة ووادى البطحاء غير ذى زرع ولما كان انتعاش سكان الحرمين ومعاشهم متوقفًا على الجراية والحبوب التى ترسل من الديار المصرية ووصولها إليهم، وأن دشائش الأوقاف مثل الدشيشة الكبيرة والمحمدية والخاصكية وغلال الجراية والصدقات لم تكن ترسل فى وقتها منذ عهد المرحوم المغفور له والدنا العظيم، وذلك لعدم اهتمام أمير الأمراء بإرسالها وبسبب كثرة أطماع النظار ومشايخ العربان وقلة تدينهم، فضلا عن إرسالها ناقصة، فزادت حالة فقراء الحرمين الشريفين والخدم والمجاورين بؤسًا بسبب القحط والغلاء وصاروا يعانون الآن جميعًا من الضيق الشديد، لَمَّا ألقى إلى مسامعنا السلطانية بحثنا عن سبب هذا الإهمال فوجدنا أن لكل دشيشة ناظرًا ومُبَاشِرًا خاصًا وأن النظار وأمراء الحج لا يحرصون على إيصال العربان الدشائش وغلال الصدقات ونقلها بجمالهم فى أوقاتها، بل يحرصون على نقل غلالهم الخاصة التى سيبيعونها كما أن بعض الأشخاص من الخارج يؤجرون جمال العربان لينقلوا غلالهم الخاصة.

وعدم نقل غلال الدشيشة فى وقتها وأكلها بالاتفاق بين النظار والعربان من الأمور التى اعتادوا عليها، ورأينا أن حَل هذه المشكلة أن تلغى نظارات الدشيشة الكبيرة، والمرادية والمحمدية والخاصكية وغلال الصدقات والجرايات، وأن توحد نظارتها وتسند إلى إنسان موثوق فيه، يعتمد عليه، رجل متدين قانع يكتفى بما يأخذ من الرسوم العوائد العادية، فلا يطمع فى حق الفقراء ولا يتجاوز حقه، كما أن مشايخ العربان عندما يرون قناعة الناظر وعفة نفسه فإنهم لا يخونون ولا يتجاوزون الاعتدال فى تعاملهم، وبهذا يمكن أن تنقل غلال الدشيشة والجراية والصدقات إلى أماكنها فى أوقاتها تمامًا هذا ما نهاه إلينا بعض أهل الخير وأصحاب العارفين بحقيقة الأمر، والآن لما كان احترام أقدس بقاع الأرض الحرمين الشريفين ورعاية جانب سكانهما ومساعدتهم من واجب العامة والخاصة ولاسيما السلاطين العظام، ولما كان أجدادنا السلف الصالح قد حملوا لقب خادم الحرمين الشريفين واستحقاق هذا اللقب قائم على رعاية سكان الحرمين الشريفين واحترام وتحسين حالتهم المعيشية بتوسيع أرزاقهم ونفقاتهم وأن ثبات هذه النعمة السلطانية العظيمة ودوامها لا يتيسر إلا بإقبال هذه الطائفة من الناس الصالحين بالدعاء المجاب لها فارغى البال ومترفى الحال، وهذا ما جزم به اعتقادى السلطانى، لذا فأقصى مرادى ومبتغى فؤادى أن تصل غلال الدشائش والصدقات والجرايات إلى أصحابها فى وقتها فى عز سلطنتى الميمونة فمن هنا قررت أن تلغى جميع نظارات الدشائش المذكورة وتجمع كلها تحت نظارة واحدة، وإننى أرى أن يكون هذا الشخص داود أغا من خدم الحرم المحترمين سابقًا ومعتمد المتقاعد حاليًا فى المحمية المصرية قدوة الخواص، والمقربين ومعتمد الملوك والسلاطين، وبما أننى أعتمد على وفرة تدينه وأمانته وفرط استقامته رأيت أن أعينه ناظرًا على جميع الدشائش، وكذلك رأيت أن توضع دشيشة الملك قايتباى تحت نظارة المشار إليه داود أغا بناء على رأيك وبناء على شرط الواقف؟ الذى جعلنى ناظرًا عليه أصالة وجعلك ناظرًا بالوكالة، وصدر أمرنا عليه أن توضع جميع الدشائش تحت نظارة داود أغا.

ولتوزع بعد ذلك دشائش الحرمين الشريفين على جمال العربان التى ستحمل غلال الدشيشة والصدقات والجراية على قدر ما تتحمل جمالهم، ويجب ألا يتعدى أمير الحاج أو غيره على جمل واحد من جمال العربان أو يتعرض إليه قبل أن تنقل الأشياء المذكورة إلى بندر السويس، كما يدبر من مخازن مصر ألف إردب قمحًا وصدقة باسم جلالتى وتنقل إلى الحرمين الشريفين قبل جميع الدشائش التى ترسل عقب إرسال صدقتى، هذا ما صدر به أمرى العالى مقرونًا برسالتى.

وقد تفضلت بمجرد وصول أمرى هذا أن توضع دشائش الدشيشة الكبيرة، والأشرفية، والمرادية والمحمدية والخاصكية وكذلك نظارة الصدقات الأخرى والجرايات تحت تصرف المشار إليه، وتوزع الدشائش التى عينت إلى مشايخ العربان لتنقل بواسطتهم إلى ميناء السويس، ولتحرص على ألا يتعرض أمير الحاج أو شخص آخر إلى جمل من جمال الحمل والنقل وما عين من قبل جلالتى مجددًا من ألف إردب قمحًا من مخازن مصر صدقة لأهل الحرمين وأن تنقل بعدها الدشائش الأخرى وغلال الصدقات والجراية، منبها بألا ينقص قدح قمح واحد عند إرساله ونقله وإننى أعتمد فى هذا الخصوص على تدينك وأمانتك ومهارتك واستقامتك وحسن فراستك ومزيد كياستك وإن ثقتى فيك لا يعلو عليها شىء.

وزد اهتمامك بهذا الموضوع لأن الدشائش والصدقات والجرايات من حق الفقراء فإذا ما وصلت تامة كاملة وفى وقتها المحدد، أُنقذ فقراء الحرمين من القحط والغلاء ويعمهم الرخص والسعة ويخلو بالهم وتتحسن حالتهم المعيشية فيقبلون على الدعاء بالغدو والآصال لدولتى وعلو شأنها.

وإذا ما أبرز أحد من أغوات الحرمين المحترمين أو واحد من أمراء مصر أو غيرهم أمرًا أو إذنا من قبل ديوانى السلطانى أو إدارتى المالية، بعد فرمانى السلطانى هذا، فلا يلتفت إليه ويسحب منه رخصته ويرسل إلى عتبتى

السلطانية، وابعث إلىّ بأسماء الذين يعوقون وصول الدشائش أو يؤخرون وصولها، والذين يتدخلون فى أمور جمال العربان ويتعرضون لهم، ويجب عليك أن تتخذ حكمى السلطانى هذا دستور عملك وأن تصونه من التغيير والتبديل وقف دون الذين يريدون مخالفة ما جاء فى مضمونه.

تحريرًا فى سنة ثلاث عشرة وألف. انتهى.

وقد جدد السلطان أحمد خان فى يوم جلوسه الميمون أبسطة حرم السعادة وستائر الكعبة المعظمة والحجرة المعطرة المزركشة، والكسوة التى فوق قبر حضرة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وغطاءى[1] عمودى الحنان والمنان وأرسل خمسة آلاف دينار لتوزيعها على أهالى الحرمين الشريفين كصدقة سلطانية، وأرسل لوحة غالية الثمن تتكون من ٢٢٧ قطعة ماسية، وقد سبق تعريفها فى مقالة خاصة، على أن تعلق مكان الكوكب الدرى الذى فى ضريح السعادة وذلك فى سنة ١٠١٢هـ.

وبعد أن علق لوحة الكوكب الدرى المزينة، دليل حبه السلطانى الذى يفوق الحد للنبى ﷺ، فى ضريح ظاهر الأنوار كشارة لوحة النبى الكريم، فى تعليقها فوق الباب الذى يطلق عليه باب التوبة، وكانت لوحة جميلة مصنوعة من الفضة الخالصة ومزينة غاية التزيين، وذلك فى سنة ١٠٢٦هـ، وكان طول اللوحة ذراعين وعرضها ذراع واحد كتب عليها تاريخها باللغة العربية.

لوح السلطان أحمد أهداه حبًا خالصًا وقطع وقفًا على أعتابك يا سيدى لتقبيل تراب عتبتك وياله من تراب، وقمنا تجاه الوجه نرجو الشفاعة إلى الله فى بحر الإساءة والذنب.

وقد علقت هذه اللوحة على الكمر الخارجى لباب التوبة وكانت ترى من داخل الروضة المطهرة.

وقد ضم السلطان أحمد خان لصرة الحرمين ألف قطعة ذهبية سنويًا، وأنعم بعطايا كثيرة لأيتام السادة والأشراف لا تعد ولا تحصى، وأمر رجال الدولة أن

(١) قطعة القماش هذه كانت نسجت من ١٨١٥١ مثقال من الخيوط الذهبية.

يقتدوا بآثاره السلطانية، وبناء على هذه الإرادة السلطانية وبهذه المعونات الكافية زوجت بنات السادات بأكفائهن.

كما بنى مؤخرًا منسوبًا للاسم السلطانى الكريم سبيلٌ بالقرب من باب الرحمة كما بنى للطلاب الذين ينتمون للمذهب الحنبلى مدرسة خاصة لإقامتهم، كما صنع حوضٌ وبركة فى طريق المحمل المصرى لسقيا الحجاج، وخصص لتعميرها كثير من النقود، ومازالت البركة والحوض موجودين مع السبيل الذى لا مثيل له بالقرب من باب الرحمة وأبناء السبيل ينتفعون منه إلا أن المدرسة التى أنشئت من أجل الطلبة فى المذهب الحنبلى خربت مع مرور الأيام ولم تعمر بعد ذلك.

كان السلحدار مصطفى باشا المغفور له قد أرسل بواسطة قاضى مصر شعبان أفندى لوحة فى غاية الزينة زينت أطرافها الأربعة بأحجار ملونة لوحة ماسية كبرى وذلك فى عهد السلطان مراد برجاء تعليقها فى ذيل الكوكب الدرى سالف الذكر، وعندما وصل المرحوم شعبان أفندى إلى المدينة علق اللوحة التى حملها تحت لوحة الكوكب الدرى هدية السلطان أحمد فى سنة ١٠٤٧هـ.

وفى عهد السلطان محمد خان بن السلطان إبراهيم أشرفت مئذنة باب السلام وبعض أماكن حرم السعادة على الانهيار والسقوط، وقد أبلغ إلى السلطان صاحب القرار فى حزن وألم فما كان إلا أن أمر والى مصر أحمد باشا بأن يرسل إلى دار الهجرة من يقومون بإصلاح ما يقتضى إصلاحه مع تدبير المبالغ اللازمة والأدوات إلى المدينة فأرسل الباشا المشار إليه الأشياء اللازمة إلى دار السكينة متتالية فهدمت مئذنة باب السلام من أساسها وجددت فى صورة جميلة وطراز بديع وفرشت الساحة الرملية التى حول الروضة المطهرة بقطع رخام مجلاة وذلك فى سنة ١٠٦٠هـ.

غريبة

كان أحمد باشا سالف الذكر الذى قد وفق فى فرش الساحة الرملية بالرخام كان قد نوى أداء الحج فى حين ولايته لديار بكر ومصر إلا إنه ذهب إلى مكة

المكرمة بعد عزله، بينما كان أحمد باشا ذاهبًا إلى المدينة المنورة مع قاضى مكة محمد بن إسماعيل أفندى فى يوم من الأيام قال مخاطبًا محمد أفندى إننى أريد أن أعرض على أعتاب الومضات النبوية خدمة، وحصول أملى هذا يتوقف على أن أتولى ولاية مصر، فأرجو منك إذا ما قدر لنا أن نتعبد فى الحجرة المعطرة واضعين جباهنا على ساحتها ساجدين لنستدر من الله شفاعة الرسول ﷺ لهذا العبد العاصى العاجز وأن تدعوه ـ تعالى ـ أن يشفعه ﷺ فى تحقيق ما فى ضميرى بأن يسند إلى عهدة هذا العبد العاجز ولاية إيالة مصر ولما وصلا إلى المدينة المنورة وأخذا فى زيارة حجرة السعادة، تذكر محمد أفندى بن إسماعيل رجاء المرحوم أحمد باشا وشرع فى دعاء مخلص محرق قائلا: «يارسول الله! إن عبدك الذى يقف أمامك رافعًا يديه معظمًا من عبيدك يتمنى أن ينال شفاعتك يوم القيامة، وإنه يريد أن تطلبوا أن توجه إليه ولاية إيالة مصر حتى يقوم بخدمة لعتبة مرتبتك النبوية!!!» ولم يكن محمد أفندى قد أنهى دعاءه بعد إذ استولى على أحمد باشا حالة وجدانية خاصة وقال لمحمد أفندى: «كفى، كفى قد استجيب دعاؤك، من قبل الله» فقال له محمد أفندى متعجبًا، «ماذا حدث؟» قال له: «ما أعجبك!! ألم تر الهياكل النورانية التى أمامنا؟ وقد رأيتها أنا ولله الحمد والمنة! بينما كنت تدعو كانوا يؤمنون على دعائك» وعرف ما حدث وفى ختام كلامه استولت على الزوار حالة غريبة؛ والله على كل شىء قدير. انتهى.

وصار أحمد باشا بعد هذه الغريبة بمدة حسب القدر واليًا على مصر، وأمر من قبل السلطان محمد خان بتجديد مئذنة باب السلام بعد هدمها وقام بالمهمة التى أحيلت إليه خير قيام ولم يطمع فى غلال صرة الحرمين أدنى طمع وأرسلها فى وقتها وزمانها وأخيرًا أصبح صدرًا أعظم وارتحل عن الدنيا مقتولاً شهيدًا رحمة الله عليه.

وبناء على إبلاغ مقام الخلافة العليا بأن جدران سور المدينة احتاجت إلى تعمير شامل فى خلال سنة ١٠٧٧هـ وأن الباب الذى فتح فى جهة البقيع ساء حاله وأصبح لا يفتح ولا يغلق صدر الأمر السلطانى إلى مدير حرم السعادة إبراهيم

أغا بتعمير سواء أكان الباب المذكور أو جدران السور التى أشرفت على الانهيار فى صورة لائقة كما أرسل مقدارًا كافيًا من النقود والمهمات فعمر ورمم إبراهيم أغا أماكن السور التى تحتاج إلى التعمير تعميرًا جيدًا، كما قوى وشيد باب البقيع بلوحات حديدية وكتب تاريخ التجديد فوق أكماره.

جدده السلطان الغازى محمد خان ابن إبراهيم خان، سنة ثمان وسبعين وألف وأبلغ ما تم عمله مركز السلطنة السنية فى سنة (١٠٧٨).

وبعد فترة أخطر باب السعادة برسائل متعددة ومحاضر أن مؤخرة حرم السعادة وسقوف دكة الأغوات قد خربت وأشرفت على الانهيار فجأة، وفهم من المضبطة التى صدرت من المجلس الذى انعقد لدراسة هذا الموضوع أن ترك المواقع المقدسة على حالتها تلك سيؤدى إلى فتح باب نفقات كثيرة، فى المستقبل كما أن سقوطها فجأة سيؤدى إلى إتلاف نفوس كثيرة فوجه إلى مدير حرم السعادة سابق الذكر أمانة البناء بتعمير وتقوية الأماكن التى تحتاج إلى التعمير بالفرمان السلطانى الصادر إليه.

وأرسل مهندسًا ماهرًا والمبالغ المقتضية ولوازم الأبنية، وجدد إبراهيم أغا بقرار الأهالى ورأيهم السقوف اللازم تجديدها بعد هدمها وشيد بعضها بالترميم ثم كتب التاريخ على مؤخرة سقف الحرم السعيد:

«جدد الحرم الشريف من فضل الله تعالى وعونه وجزيل عطائه العميم السلطان محمود خان بن السلطان إبراهيم خان كان له ناظرًا إبراهيم أغا وكان الفراغ فى سنة ألف وثلاث وتسعين».

كما كتب عليه قصيدة مناسبة ثم أبلغ الأمر بواسطة شيخ الحرم عثمان أغا إلى مركز السلطنة، ولما حظى هذا العمل باستحسان السلطان أكرم كثيرًا من سادات البلاد والموظفين الحكوميين الكثيرين وذكر ما بذله الأغا المذكور من سعى وجهد وذلك فى كشف مخصوص وقدر عمله وذلك فى سنة (١٠٣٩هـ).

كما أحيا إبراهيم أغا كثيرًا من الآثار الجليلة باسم المرحوم السلطان محمد

خان، إلا أن مرور الأيام ودوران الزمن خرب جميع هذه الآثار ولم يبق أحد يعرف حتى أماكن هذه الآثار الخربة، إلا أن إبراهيم أغا قد صنع صهريجًا كبيرًا وحوضًا واسعًا عميقًا فى جهة المساجد الأربعة التى تقع فى ناحية جبل سلع وخلفه وذلك بناء على الأمر السلطانى الذى تلقاه، وأسس فوق هذا الضريح قصرًا مرتفعًا بهيجًا، وكانت أطرافه الأربعة محاطة بحقل أخضر خال من الجبال والمنازل على مدى الرؤية، واشترى لزوار المساجد الأربعة وأبناء السبيل.

ومازال الصهريج الذى صنعه إبراهيم أغا قائمًا ينتفع منه المارُّون إلا أنه أشرف عل الخراب والانهيار.

وإذا ما ترك فترة مهملاً فمن اليقين أنه سيصبح غير صالح للاستخدام.

ومن السلاطين الذين رعوا حرمة أهالى الحرمين **السلطان مصطفى** خان الثانى.

وقد راعى جانب أهالى الحرمين وقدم لمبانى مسجد السعادة خدمات كثيرة، فإلى عهده لم تكن الحفلات تقام بمناسبة الولادة النبوية مرة فى السنة وقد استن فى عهده انعقاد الجمعيات مرة فى السنة لقراءة منظومة المولد النبوى وأمر بتدبير ٣٣٠٠ قرش من الخزانة المصرية وإرسالها إلى المدينة وذلك فى سنة ١١١٣هـ.

وكانت هذه المجالس تنعقد بعد إشراق شمس اليوم الثانى عشر من ربيع الأول كل سنة، وتعقد الاحتفالات بالمولد النبوى الباهر فى زماننا فى الليل.

صورة انعقاد مجالس الاحتفالات بالمولد النبوى الميمون

كان مدير حرم السعادة قبل ليلة تلاوة المولد بيوم يجهز مشروبات حلوة ويملأ بها زوارق حرم السعادة ويرسل إلى منازل أعيان البلاد وموظفى الحكومة وأصحاب الخواطر عدة زوارق من الشراب يشير بذلك إلى انعقاد جمعية الاحتفالات بالمولد النبوى فى حرم السعادة ويعلنه ويفرش على ساحة مسجد

السعادة ـ حسب عادة البلد ـ الأغطية والسجاجيد والمقاعد ويأتى بالكراسى ويزين المكان، وبما أن كل من أرسل إلى بيته الشراب يُعَدُّ مدعوًا للاشتراك فى الجمعية ففى القرب من مساء اليوم الثانى، يأتى المدعوون الكرام أفواجًا إلى مسجد السعادة، وأفراد الجماعات الذين يرون هؤلاء المدعوين يتركون أعمالهم ويتجهون إلى مسجد السعادة حتى يكونوا فى هذا المجلس البهيج ويجلسون فوق الأغطية والوسائد والسجاجيد التى فرشت.

وقد توضع فى ساحة مسجد السعادة كراسى ذات غطاء[1] أبيض تكون الوسائد التى بالقرب من دكة الأغوات قد غطيت بأقمشة حمراء فيجلس شيخ الحرمين ومدير الحرم ونائب الحرم والمفتون والقضاة والأغوات وأعاظم السادات، وموظفو الحكومة فوق هذه الوسائد ويوقدون أعواد العود والعنبر فى المباخر الفضية ويستغرق الجماعات عامة فى بحار السكوت والحيرة نتيجة لهذه الروحانية المدهشة التى يكتسبها المكان، وبعدما يستمر هذا الصمت فترة يجلس أربعة من الخطباء ذوى أصوات رخيمة حزينة فوق الكرسى سالف الذكر بعد أداء مراسم الصلاة والسلام ويشرعون فى تلاوة منظومة المولد النبوى، وبعد الحمد والصلاة يدعون دعاء مؤثرًا مناسبًا للسلطان مؤسس هذه الجمعية وللسلطان الذى مازال حَيًّا، ثم ينزلون من الكرسى.

وبعد أن ينزل هؤلاء الخطباء الأربعة من فوق الكرسى يصعد خطيب آخر ويدعو على الطريقة التى سبق ذكرها وينزل، وبعده يصعد خطيبان واحد تلو الآخر ويكملان الدعاء الخاص بمجلس الجمعية النبوية لمولد النبى وينزلان، وبعدهما يصعد خطيب آخر يتلو منقبة ولادة سيد العالمين وعقب ذلك يلقى قصيدة[2] بليغة فيملأ قلوب الحاضرين بالبهجة والسرور.

(١) أرسلت أغطية هذا المقعد المزينة فى عصر السلطان أحمد بن السلطان محمود خان، وكان قبل ذلك خاليًا من الغطاء.

(٢) تركت قراءة هذه القصيدة فى وقتنا الحالى.

وبينما تتلى منظومة المولد الشريف يسقى السقاة[1] بشراب حلو يروى الجماعة العطشى، ويُكْسَىُ من اشترط الواقف إتحافهم بالخلع خلعًا فاخرة.

تكون فى هذه الجمعية أشواق وشفافية وروحانية بما لا يمكن وصفه، وتتولد دهشة فوق العادة من الأعمدة ذات القباب والخيم والهيئات المرئية للسادة الخطباء فوق الكرسى، دهشة وجدانية فتترك الجماعة غائبين عن وعيهم وعقلهم.

وتعقد عين هذه الجمعية كل سنة فى ليلة السابع والعشرين من رمضان فى مكة المكرمة على أن تعطى نفقاتها من وقف السلطان مصطفى خان المشار إليه.

والجمعية التى تعقد فى مكة المعظمة تعقد فى جهة المحكمة من ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات، ويجتمع فى هذه الجمعية أمير مكة المعظمة ووالى الحجاز والعلماء وجميع الصالحين وإن لم يكن توزيع الشراب فى الزوارق من النظام المتبع فى تلك الجمعية إلا أن من العادة فرش الحرم الشريف وتهيئته، فنائب الحرم يفرش الجهة التى تقع فى ناحية المحكمة بمقدار كاف من السجاجيد والوسائد فى يوم انعقاد الجمعية ويدير مقدارًا كافيًا من الشراب واللوازم الأخرى ويفيد الحضور الذين اعتادوا المجئ بنفس الكيفية، ويأتى سواء أكان الأشخاص اللذين أخبروا بالأمر أو موظفو الدوائر الحكومية لابسين ملابسهم الرسمية إلى الحرم الشريف ويجلسون فوق السجاجيد التى هيئت كل واحد منهم حسب مراتبهم، وبعد مدة وجيزة توقد المجامر بالعود والعنبر فيمسكونها بأيديهم ويتوجهون إلى مسقط الرأس الشريف للنبى محمد ﷺ، إلى الدار التى شهدت ولادة النبى ﷺ وكل ذلك فى موكب فخم عظيم، إن هذه الدار قد اشتهرت باسم مولد النبى وفى هذا المكان الذى يشبه الجنة تتلى منظومة المولد الشريف وتلبس الخلع بجانبه حسب النظام المتبع.

(١) فى زماننا كان الأغوات هم الذين يوزعون الشراب.

وبعد ذلك تعود هيئة الجمعية إلى المسجد الحرام ويشرعون فى تلاوة الأدعية المأثورة وينهون الاجتماع بشرب الشراب الذى أعده نائب الحرم.

وقد أضاف لهذه الجمعية فى أواسط سلطنته السلطان عبد العزيز المأكل الحلو والملبس واتخذ إرسال هذه الملابس من باب السعادة نظامًا خاصًا ومن هنا يرسل كل سنة مع محمل الشام هذه الملابس، وعند عقد جمعية المولد يوزع أطباق منه إلى الحاضرين.

أشرفت فى سنة ١١٠٧هـ بعض أماكن من سقوف مسجد السعادة على الخراب كما أوشكت بعض أعمدته على الانهيار والخراب، فأبلغ ذلك من قبل بكر أغا شيخ الحرم إلى باب صاحب القرار وبناء على هذا الأمر السلطانى أرسل المهندس سليمان بك إلى المدينة المنورة بمهمة تعمير الأماكن المقدسة التى تحتاج إلى ذلك وأمر والى مصر بتدبير المبالغ اللازمة ولوازم المبانى وإرسالها إلى المدينة المنورة، وتحرك سليمان بك من مصر القاهرة وقد أخذ معه ما جهز من المهمات وما دبر من المبالغ إلى دار الهجرة ووصل إليها فى سنة ١١٠٨هـ وبقرار وجوه البلاد وكبار موظفى الدولة شرع فى العمل فجدد السقوف المتضررة ومعها اثنى عشر عمودًا كما أصلح من مسجد السعادة وبعد أن زين كل جهات حرم السعادة بأنواع النقوش والرسوم، هدم مسجد قباء والمصلى النبوى، ومسجد على ، من أسسها وجددها بناءًا حجريًا جاعلاً لها قبابًا وأسس بجانب مسجد على مدرسة ودار كتب وسبيلاً مشهورًا باسم الاسم السلطانى، وبعد أن أتم هذه الأعمال كما فصل فى أماكنها جدد مشهد حمزة ـ رضى الله عنه ـ وأتم مهمته بأن طَهَّرَ مجرى عين الزرقاء وبئرى على، وعاد إلى باب السعادة وحظى عمله هذا بالابتهاج السلطانى فأحسن إليه حيث رقى إلى رتبة أمير الأمراء.

وقد نظم أحد شعراء المدينة المنورة تاريخًا يعرف ما قام به سليمان بك من إحيائه لبعض المواقع وقد كتب هذا التاريخ بعد الاستئذان على قطعة رخام وحك وألصق على عمود بالقرب من باب الوفود.

وهذه صورة التاريخ المذكورة الذى مازال قائمًا.

عربى

حمدًا من آل عثمان الملوك المصطفين

حيث جاد كالمطر على من أعلى القلم

وقصر للخير نسلاً بعد نسل فانتهى

دور إحسان إلى من كان ينبوع الكرم

حضرة سلطان ثانى مصطفى أولهم

صب أموالاً لتجديد الخير المحتشم

ثم أحيا مسجد التقوى المؤسس فى قباء

والذى يدعى مُصَلَّى الحبيب المحترم

مشهد حمزة عم النبى المصطفى

جدد والحمد لله على الوجه الأتم

ونظف فى ذى الحُلَيْفَةَ داخل بئر على

أحلى فى مظاهر منتها الذى كان الأهم

ثم أجرى عين الزرقاء من أم القبة

بعد تنظيف لها من طين مجرى منقسم

طول مجراها من الأم إلى أرض الجرف

طال ما لم يتفق تطهيرها منذ القدم

جاء مقبول العرب من عون أنظار العجم

فارق الله تعالى بالقبول والرضا

صانه صاخرا اليوم تلتقيه لاجرم

ثم إن حاولت تاريخًا لتجديد ذكر

فاستمع من حق ما يتلى عليك من رقم

عد مفصولات الفات فذاك التاريخ

جدد السلطان الأعظم مصطفا هذا الحرم

فى سنة ١١١هـ.

خرب أحد سقوف مؤخرة حرم السعادة إذ أصابته صاعقة وذلك بعد عودة سليمان باشا إلى باب السعادة بعدة أشهر، وبناء على ما قدم من الرجاء قد رقى الباشا المشار إليه إلى رتبة أعلى وأسندت إليه ولاية جدة وأمر بأن يهتم بتعمير سقوف الحرم السعيد الذى تعرض للخراب، فوصل سليمان باشا إلى المدينة المنورة وعمر المواقع المذكورة كما يجب وعلى الوجه المطلوب وكتب على ركن من أركان ذلك السقف:

جدد هذا السقف الشريف، ملك البرين والبحرين، خادم الحرمين الشريفين السلطان الغازى مصطفى خان، خلد الله ملكه وذلك بنظارة العبد الفقير المعترف بالتقصير، الحاج سليمان باشا، المحافظ فى جدة المعمورة المشرف بخدمة رسول الله ﷺ وذلك فى سنة ١١١٢هـ.

وللسلطان أحمد خان الثالث بن السلطان محمد خان الرابع خدمات مشكورة لحرم السعادة، قد أخبر فى سنة ١١٣٢هـ أن اثنى عشر عمودًا متصلة بالساحة الرملية التى فى الجهة الغربية لجدران حرم السعادة أشرفت على الخراب، من قبل أعيان البلدة وموظفى دار السكينة وصدرت الإدارة السلطانية بإرسال موظف بسرعة لتجديد تلك الأعمدة وتعميرها فوجهت أمانة البناء لشخص يدعى الحاج موسى أغا وأرسل إلى المدينة المنورة.

ووصل الحاج موسى إلى دار الهجرة العالية وبعد كشف المواقع الشريفة بدلالة أصحاب الخبرة جدد تلك الأعمدة الإثنى عشر والجهات الأخرى من حرم السعادة

فى صورة كاملة فى سنة (١١٣٣هـ) وكتب على أحد الأعمدة التى ركزت جديداً أيد الله نصر دولة من جدد هاتين المنامتين الشريفتين، ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان بن السلطان الغازى أحمد خان، ابن الغازى محمد خان، خلد الله ملكه وذلك بمباشرة العبد الضعيف، الحاج موسى ووافق بتجديد تاريخ المنامتين بالمسجد، سنة ألف ومائة وثلاثة وثلاثين، وأمر بكتابة هذا التاريخ.

وبعد أن أتم تعمير الأعمدة المذكورة فهم بعد الكشف والمعاينة أن بعض أعمدة حرم السعادة آلت إلى الخراب فهدم تلك الجهات فى الحال أيضا وأحكم تشييدها هكذا ثم عاد إلى باب السعادة وقد أتم مهمته على خير وجه، وقد رقى إلى رتبة أمير الأمراء ومنح مكافأة سلطانية خاصة له.

وخدمات السلطان محمود خان الأول بن السلطان مصطفى خان للحرمين كثيرة بدرجة فوق العادة، فقد ظهرت علامات السقوط والانهيار فى سقف حرم السعادة وأبلغ ذلك إلى الباب العالى وعرض الأمر إلى عتبة السلطان المشار إليه، فأحال الأمر إلى الحاج أحمد باشا والى جدة على أن يرسل أحد الأشخاص الذين يعتمد عليهم فى تعمير السقف الشريف فأرسل الباشا المذكور محمد أغا من خاصة أتباعه وذهب محمد أغا إلى المدينة المنورة وقام بأداء مهمته وكتب حول السقف الذى جدده عبارة: «أمر بعمارة هذا الرواق الشريف، ملك البرين والبحرين، خادم الحرمين الشريفين مولانا السلطان الغازى محمود خان، بن المرحوم السلطان مصطفى خان، عز نصره وذلك بمعرفة الحاج أحمد باشا محافظ بندر جدة المعمورة وبمباشرة تابعه الحاج محمد آغا ثم عاد، وذلك فى سنة ١١٤٩.

كان السلطان المشار إليه قد أرسل ثريا مجوهرة لتعليقها فى قبر الرسول كما أرسل غطاءً جميلاً من أجل قبر فاطمة الزهراء وأرسل إلى الروضة المطهرة ٨٨ قطعة من أبسطة وعددين من الشمعدان الذهبى، وقد أرسلت الأشياء المذكورة فى عهدة عثمان أغا من أغوات باب السعادة، وبما أن المؤرخين قد وصفوا هذه

الهدايا بأن كل واحدة منها كانت أغلى ما أرسل وأجمل ما بعث إلى الحجرة المعطرة وأجملها؛ اقتضى الأمر أن نعطى فرصة لقلمنا ليجول ويصول فى وصف كيفية صنع تلك الأشياء وصورة إرسالها.

وكان أحد الأشياء التى أوصلها أغا باب السعادة عثمان أغا إلى المدينة المنورة كما سبق ذكره أعلاه قطعة من ثريا لا مثيل لها، كانت هذه الثريا فى صفاء الماء وألوان أزاهير نباتات الحقول ومن حيث لمعانها تضارع لمعان سهيل اليمانى، وزنها ٧٢٥ قيراط مثلثة الشكل، وكانت فى الجهة الأخرى منها زمردة أخرى تتوهج كعين شمس تبهر العيون وزنها ٧٦٨ قيراط، وكانت فى الجهة الثالثة قطعة زمرد أخرى نورها كأنوار الصباح تلمع فى الجهات الأربع قطعة تحير العقول بجمالها وفى وزن ٢٥٧ قيراط، وقد بلغ مجموع وزنها ٢٢٧٢ قيراط.

وهذه القطع الثلاث من الزمرد التى تشتهر بالمعدن القديم والتى لا نظير لها كانت أطرافها دائرة ما دار وأعلاها مرصع باثنتى عشرة قطعة كبيرة من الماس كأنها بدر ينير محيط الأبراج السماوية وبأربعين قطعة ماس من حجم متوسط واثنتين وستين قطعة من الماس أقرب إلى الوسط و١١٤ قطعة ماس التى تعتبر صغيرة بالنسبة للقطع الكبيرة لم يكن لها مثيل، وقطعة ماس كبيرة تحير العقول، وكان طوق تلك الثريا مزينًا بتسع عشرة قطعة من الماس مختلفة وكانت حلقتها التى تعلق بها والتى تشبه هالة البدر مزينة بأربع قطع من الماس وكانت تتكون من ٣٥٢ حبة قيمة من الدر اليتيم مع ثلاثة عشر صفًّا من المزين بثلاث عشرة حبة من الزمرد وكانت لائقة أن تكون ثريا عذارى الحور العين.

وكانت الثريا تشمل فى الأماكن التى تجذب الأنظار دررًا وغررًا وجواهر لا عَدَّ لها كما تشتمل على صورة غريبة وكانت فى غنى عن الوصف حقاً.

إن النقوش تحير العيون والتى نقشت على وجهها الواحد هى أثر من فنانى الياقوت ومن هنا فهى كانت فى نظر من رآها من المؤرخين كعروس تجلت فى حجرة نومها بل كانت من قبيل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وبعد أن صنفت الثريا التى سبق تعريفها فى مكانها اللائق، نسجت قطع الأقمشة والأغطية والسجاجيد التى صدر الأمر بصنعها ووضعها فى مشهد الحرم القدسى والروضة المطهرة التى يخدمها الملائكة، وكانت قطعة القماش كسوة جدران المرقد النبوى تعانق دائرًا ما دار الحجرة فى جهاتها الأربعة وكانت أرضية هذا القماش الساحر من ستين ذراعًا من الأطلس الأخضر وجها وبطانة وقد سطر على هذا القماش الذى يبعث الفرحة السورة الشريفة «الفتح» باستعمال ٧٠٠٠ مثقال من خيوط الفضة النادرة، وزينت ما بين سطورها بجداول لحسنها فبدت كأنوار الشفق وظهرت فى ساحة الأخيار وتمنى رضوان الجنة أن يمسح وجهه عليها.

وحتى يربط ما بين الغطاء الشريف المذكور أرسل ٥٧ قطعة أطلس فى لون الزرع وكل قطعة فى أربعة عشر ذراعًا، كتبت عليها بعض الآيات الكريمة وكلمة الشهادة المباركة والصلوات الشريفة ثم أرسلت وأكملت بلوازمها الأخرى، ثم أرسلت أغطية ضريح وردة بستان النبوة، وثمرة سدرة المنتهى للرسالة، سيدة قصر العفة زينة بيت الشرف والسعادة درة السيادة السماوية ولؤلؤة العصمة سيدة النساء وقطعة كبد حبيب الله فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وكانت أرضيتها الغالية حمراء اللون ولون بطانتها خضراء.

وقد كتب فوق (١١) قطعة من أجمل أقمشة الأطلس بالخيوط الذهبية بعض الأحاديث الشريفة ببراعة أساتذة الفن، ولما تم صنع أعمالها الأخرى أرسلت إلى المدينة المنورة لتعلق على جدران المسجد النبوى والمعبد المصطفوى توأم الجنة كما أرسلت ثمان وثمانين قطعة سجاد مزخرفة بأنواع نقوش الأزاهير إلى المدينة المنورة لتفرش على ساحة الحرم النبوى، وكان مقدار هذه السجاجيد بالحساب التربيعى ٣٠٨١ ذراع من القماش والشمعدانان اللذان أرسلا لإنارة المكان الذى بشر بالحديث الشريف الذى يقول «بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة»، وطاف المحراب المشحون بالرحمة حيث توافر أجنحة الروحانية ذات عرب وكانا كأنهما نيران من حيث الشكل أو مثل الفرقدين وكانا مرصعين بأنواع الرسوم

البديعة وكانا من الذهب الخالص مع مقعدين مطليين بالذهب وقد أمر بجعلهما مصباحين لإنارة هذا المكان المبارك مهبط الوحى.

وأرسل الشمعدانان والسجاجيد التى ذكرت بحرًا وأرسلت الأغطية والثريا المزينة برًا، بعد أن أودعت فى أمانة الصف ووصلت تلك الأشياء التى أرسلت برًا يوم الخميس وبناء على الأمر المطاع من الجميع الأمر السلطانى الذى يحترمه الجميع أخرجت تلك الثريا أمام الباشا الحاج وشيخ الحرم النبوى الحاج عبد الرحمن أغا وقاضى المدينة وأمين الصف وكافة العلماء والخطباء والأئمة والأشراف وحضورهم وبعدما رآها الجميع أخذت بمراسم الآداب والخشوع وقراءة الأوراد والتحيات إلى حجرة سيد الورى المنظمة ـ عليه أفضل التحايا ـ حيث علقت فى مكان مناسب.

وهكذا أدى مهمته، وبعد ذلك أخرجت أغطية المرقد النبوى وفق المراسم القديمة بكل تعظيم وتفخيم وعلقت على جدران المشهد المصطفوى وبعدما كُسِيَ مضجع سلطان القصرين ولم يقصر أحد فى بذل أقصى ما يقدر عليه من التوقير والإجلال حين كُسى المضجع النبوى ألبست أغطية مرقد الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وبما أنه قد وصلت ٨٨ قطعة من السجاجيد ذات النقوش البديعة والشمعدانان فبسطت السجاجيد على ساحة الحرم النبوى الشريف والروضة المطهرة المصطفوية، ووضع الشمعدانان مع مقعديهما يمين محراب النبى ويساره.

وكان السلطان محمود خان قد أرسل قبل ذلك ثريا أخرى وبما أنها كانت مثل الثريا التى سبق تعريفها فصرف النظر عن تعريف شكلها وهيئتها.

ومن السلاطين الذين خدموا حرم السعادة السلطان الغازى السلطان عثمان خان الثالث بن السلطان مصطفى خان الثانى، إذ كان قد أرسل أمين الصف إبراهيم أغا مكلفًا بمهمة كشف وتعمير سقوف مؤخر حرم السعادة التى أشرفت على الخراب بعد ما استأذن منهم بذلك فى سنة (١١٦٩هـ) وأبلغ والى مصر بأن يرسل إلى المدينة الأشياء اللازمة للتعمير سريعًا.

ولما وصل إبراهيم أغا إلى المدينة المنورة وجد لوازم البناء التى أرسلت من مصر قد وصلت فعمر السقوف التى أشرفت على الخراب وما احتاج للإصلاح من مواقع حرم السعادة وكتب على السقف الجديد هذه العبارة:

«أمر بعمارة الحرم الشريف السلطان الأعظم السلطان عثمان خان، بن السلطان مصطفى خان، خلد الله ملكه وذلك بمباشرة الحاج المعتمر الأمين إبراهيم أغا، أمين الحرمين الشريفين، وأمين بناء المسجد النبوى بتوفيقه من الله؛ سنة ألف ومائة وسبعين.

والسلطان مصطفى خان الثالث بن السلطان أحمد خان الثالث من السلاطين العثمانية الذين كانوا يبذلون المهج فى سبيل النبى ﷺ، وقد وصل إلى أعتاب سلطنته أن علامات الانهيار والسقوط قد ظهرت فى بعض أماكن سقف حرم السعادة وبناء على ذلك صدر الأمر السلطانى بالإسراع فى تعمير وتجديد الأماكن التى اقتضت ذلك وأرسل إلى المدينة المنورة بصحبة محمد أمين بن فيض الله أغا مهرة العمال والمعماريين المقتدرين.

ووصل محمد أمين أغا إلى دار السكينة وأصلح الأماكن التى أشرفت على الخراب من سقوف الحرم الشريف بالاتفاق مع أعيان البلاد وموظفى الحكومة وبقرارهم، وعمر بعد ذلك الجدار الذى على يمين مضجع السعادة ويساره بأحجار ملونة مختلفة، وزين جميع جهات الحرم النبوى توأم الجنة.

وجعله مثالاً للبيت الذى يقول:

ما حاجتنا لتعريف الشمس بالنور فآثـار نـوره ظاهـرة للعيـان

وكتب فوق السقف الذى جدده

أمر بعمارة هذا الحرم الشريف السلطان عبد الحميد خان، بن السلطان أحمد خان خلد الله ملكه مدى الزمان وذلك بمباشرة المفتقر إلى الله، العبد محمد أمين بن فيض الله؛ سنة واحد وتسعين ومائة وألف.

وكتب على اللوحتين المعلقتين مقابل الجدار النبوى من اليمين والشمال تاريخ

مقام المصطفى قف به منكس الرأس ما تريد
وتبتل لله الأحد فوق الذى، نرجوه مما عليه مزيد
وادع لمن فاق الملوك الأولى، قد خدموا هذا المكان السعيد
سلطاننا عبد الحميد الذى، فى ملكه إذا أمسى نظام جديد
واسأل لأمين بَنَّاء محمد شفاعته إنه بها سعيد
مسجد طه أوجه الأنبياء، جدده الخان عبد الحميد

كتب هذه المنظومة وكتب قطعة.

يا خير من دفنت فى القاع أعظمه
فطاب من طيبه القاع والأكم
نفسى فداء لقبر أنت ساكنه
فيه العفاف وفيه الجود والكرم

على العمودين الرخاميين المربعين على يمين ويسار ذلك الموقع الشريف، وكتب حول شبكة السعادة دائراً ما دار قصيدة «يا رسول الله! خذ بيدى» البليغة بخط جميل وذهبها، فى سنة ١١٩١.

وقد عمر السلطان عبد الحميد خان بعد هذا التعمير بعشر سنوات بواسطة حامل أسلحة السلطان الحاج محمد أغا ونظارته الباب الخشبى وأساطين الروضة المطهرة، وكان ذلك الباب الخشبى على يسار محراب النبى ﷺ، وقد أصلح هذه الأماكن فى طراز جميل وكتب الجملة المنجية لا إله إلا الله، الملك الحق المبين وحديث «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» (حديث شريف) فى المكان الذى ينظر إلى الجدار القبلى للباب المذكور، وكتب فى ذيل هذه الكتابات عبارة (عمره السلطان عبد الحميد خان (١٢٠١).

وبعد عام أقيمت مدرسة تضم سبع عشرة حجرة ومحلاً للاستذكار ومكتبة وجعل سواء أكان للطلبة الساكنين أو المدرسين أو أمناء دار الكتب مقدارًا كافيًا من المرتبات واشترى حديقة النخيل وبستان الخضر القريبين من المدرسة ووقف محاصيلها للطلبة الساكنين فى المدرسة وذلك فى سنة (١٢٠٢).

ومن السلاطين العثمانيين السلطان سليم الذى فخم الحرمين المحترمين أعظم تفخيم وعظم أهاليهما الكرام أعظم تعظيم، وهو السلطان سليم خان الثالث بن السلطان مصطفى خان الثالث، قد أمر فى عصره السعيد بناء على استئذان الأهالى بتعمير وإصلاح جدران الحرم النبوى مخدوم الملائكة والأساطين التى فى داخل الروضة المطهرة التى تعد من الآثار النبوية، وغلف الأساطين الشريفة المذكورة مقدار ذراعين من الأرض بقطع رخام ملون، ونظم قصيدة بذاته لتكتب على قطع الرخام الملونة وأرسلها إلى أمانة البناء، وقد كتبت هذه القصيدة فى بحث الأساطين الملونة، ذلك فى سنة ١٢٠٨هـ.

وبعد هذا التعمير بأربعة أعوام قد زين وعمر يمين ويسار جدران باب جبريل قدر ذراعين من الأرض وجدار محراب التهجد كاملاً بالصينى، وطهر ونظف مجرى عين الزرقاء وذلك بنظارة والى الشام عبد الله باشا.

وقد أنفق السلطان الغازى محمود خان الثانى بن السلطان عبد الحميد خان الأول كثيرًا من النقود للحرمين الشريفين وأظهر بهذه الطريقة شدة حبه ووداده للنبى ﷺ.

والحبوب التى خصصت لأهالى الحرمين من السلطنة السنية العثمانية فى عصره، قد شريت وبيعت لسوء إدارة موظفى الدولة وطمع سكان المدينة الأغنياء والتجار، وترك الفقراء والضعفاء جوعى ومرضى دون علاج وأخذ فقراء الحرمين يعانون أشد العناء وأخبر بذلك السلطان وعرض النبأ على عتباته، واستحصل منه على إرادة سنية بخصوص إحصاء السكان لإعادة توزيع المرتبات وتقسيمها من

جديد، وكلف الوالى إبراهيم باشا الذى كان فى ذلك الوقت فى المدينة المنورة بإحصاء نفوس أهالى المدينة، كما عين محافظ مكة خليل باشا لإحصاء عدد سكان أهالى مكة المعظمة.

وقد حرر إبراهيم باشا أسماء سكان المدينة المنورة وقيدها بأسرها كما حرر خليل باشا أيضا أسماء سكان مكة المكرمة وحدا الدفترين وبعد ختمهما أرسلاهما إلى والى مصر محمد على باشا كما أن الباشا المذكور أرسل الدفترين ملفوفين بالكشف الذى ستبين صورته فيما يأتى إلى الباب العالى.

وظن بعض الأهالى من هذا الإحصاء أن الدولة تريد أن تجند أبناءهم وأخفوا عددهم، لذا لم يدرج أسماء كثيرين منهم فى الدفاتر ولكن المجربين منهم فهموا الموضوع ووجدوا طريقة لإدراج أسمائهم فى آخر الدفاتر بواسطة موظفى الإدارة المصرية ولكن الذين لا يعرفون أحدًا ظلوا غير مقيدين.

صورة القائمة التى كتبها محمد على باشا إلى مقام الصدارة العظمى السامى:

إن الغلال التى خصصت ورتبت من مصر فى السنين السابقة لأهالى الحرمين عَفَى نظامها مع مرور السنين وأبدل وأخذت تباع وتشترى فيما بينهم حتى استولى عليها الأغنياء، واضطروا فقراءها للبحث عن أقواتهم اليومية وكان إدخالهم تحت النظام غير ممكن.

وقد رأينا أن نرسل إلى أهالى الحرمين الشريفين من المخازن المصرية مجددًا مقدارًا كافيًا من الغلال بنية خالصة على أن تعد هذه الغلال من جملة الآثار الخيرية للسلطان المهيب ذا الشوكة ملجأ الإسلام ظل فضل الله، وفى نعم كافة الأمم، محمولة على المراكب حتى تستجلب لذاتكم السلطانية أدعية مضاعفة من أهالى الحرمين، وبناء عليه قد رأى ابن عبدكم إبراهيم باشا عند عودته من الباب العالى إلى المدينة المنورة إعداد دفتر لكتابة أسماء أهالى المدينة المنورة لإحصاء عددهم، وذلك بعلم أغا شيخ الحرم ورأيه وبضم آراء قاضى المدينة ومفتيها وفضلاء علمائه ووجوه البلاد، كما اتخذ دفترًا آخر حرر بعلم صاحب السعادة

محافظ مكة خليل باشا وعلم الشريف يحيى وبمعرفة قاضى مكة المكرمة ومفتيها إلى أعتاب عظمتكم السلطانية، والعلة الغائبة من هذا العمل الخيرى هى استجلاب الدعاء بالخير لجانب سلطنتكم، وقد بلغ مقدار الغلال السنوية الخاصة بالحرمين الشريفين إلى ١٦ ألف إردب وبعد هذه السنة سترسل الغلال الخاصة بالحرمين الشريفين فى ميعادها دون تفويت وقتها وقد بدأنا بذلك فى هذه السنة وببيان ذلك أعرض لجانب سلطنتكم طاعتى، انتهى.

ولما أطلع السلطان على ما جاء فى الدفترين أمر بتنفيذ ما جاء فيهما، وبناء على ذلك شرع فى إرسال الغلال إلى الحرمين، إلا أن المساكين الذين لم تدرج أسماؤهم فى الدفترين حرموا من العطايا السلطانية ولكن بناء على رجاءات وجوه البلد واسترحاماتهم أضيف إلى العطايا ألف إردب حنطة فوصلت المخصصات الحجازية إلى سبعة عشر ألف إردب من حنطة وهذه المخصصات ترسل الآن.

سبب تشكيل مديرية الخزانة

إلى أن حل الوقت الذى بلغت المرتبات الحجازية إلى سبعة عشر ألف إردب قمح، كان أمناء الصرة ثانى يوم وصولهم إلى المدينة الأمينة يفرشون على ساحة حرم السعادة الأبسطة ويوزعون ما سلم لهم من المبالغ لإعطائها لأهالى دار السكينة من باب السعادة ويستدعون من حُرِّرَتْ أسماؤهم فى الدفاتر التى أعطيت لهم من خزانتى الأوقاف والمالية، وفى حضور أشراف البلاد وموظفى الحكومة يسلمون لهم بأيديهم مخصصاتهم، ولما لم تكن فى ذلك الوقت دوائر فرعية خاصة بمديرية الخزانة كانت مستحقات كل فرد تسلم له دفعة واحدة من قبل أمين الصرة، ولما كان صرف واستهلاك المبالغ التى أخذت دفعة واحدة فى خلال أيام قليلة حسب الحاجة الطبيعية، كان سكان دار السكينة ينفقون مخصصاتهم خلال عدة شهور بوفرة ثم يعانون من قلة المال خلال الثمانية أشهر الباقية، ولما أطلع السلطان محمود على هذه الحالة ألغى هذا النظام وأنقذ الأهالى من هذه المعاناة

بوضع نظام تقسيم مخصصات كل فرد إلى اثنى عشر شهرًا وإعطائها لهم فى كل شهر.

وحتى تعطى هذه الرواتب الشهرية وتوزع فى صورة منتظمة شكل مديرية خزانة المدينة المنورة وعين لها موظفين وبين لكل واحد منهم وظيفته، ويسلم الآن أمناء الصرة ما حملوه من الأمانات لخزانة المديرية بموجب الدفاتر كما أن موظفى الخزانة يوزعونها شهرًا بشهر لأصحابها، ومديرية الخزانة دائرة غاية فى النظام فلها دفاترها المنظمة، وسجلاتها التفصيلية ولها محققوها ومدققوها، وتجرى معاملاتها فى دائرة النظم الموضوعة.

ولا يضيع حق أحد فى ظل حضرة الخليفة العادل، ولا يبرز إنسان قائلاً: «قد أضيع وأخفى». وذلك فى سنة ١٢٣٣هـ، انتهى.

وقد أصبح المسجد النبوى فى أشد الحاجة إلى الإصلاح، فأعلم والى مصر محمد على باشا مركز السلطنة العثمانية بذلك ولما جاء الرد لمحمد على باشا يطلب منه أن يعين رجلاً مناسبًا لأمانة البناء لتعمير الحرم النبوى على أحسن وجه، فكوفئ كاتب الديوان المصرى طاهر أفندى وهو من صلحاء الرجال المصريين بتعيينه أمينًا للبناء وأرسله إلى المدينة المنورة ذات الشرف العالى.

ووصل طاهر أفندى إلى دار الهجرة واطلع مع وجوهها واتفاق آرائهم على حرم السعادة، وقرر تعمير وتقوية قبة حجرة السعادة وأحاط الحائط الذى بنى فى عهد عمر بن عبد العزيز بسور آخر، فأحكم تشييد القبة الخضراء على وجه لائق بكل تعظيم وتوقير.

واهتم قاضى البلدة وشيخ الحرم النبوى وأعيان البلد وكبار موظفى الدولة بأداء الخدمة وهم لابسون أفخر ثيابهم، وبعد أن عمر الحجرة المعطرة على الوجه الأكمل جعل النقاشين الذين أرسلوا من باب السعادة يصبغونها وزين جدرانها برسوم مختلفة الشكل ثم كتب الحديث الشريف فوق الباب الخشبى الذى يقع

فى جهة المرقد النبوى من محراب النبى قال رسول الله ﷺ: «**من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى، ومن زارنى وجبت له شفاعتى**»، صدق رسول الله ﷺ، كتبه الفقير قوناقجى زاده إبراهيم النقشى ثم كتب على رخام مستدير فى الجهة الداخلية من باب جبريل عبارة: «عمر السلطان الغازى محمود خان نصره الله تعالى سنة ١٢٢٨»، وفى الجهة الداخلية من جهة اليسار كتبت جملة: «عمر الحرم الشريف أمين كاتب الديوان المصرى محمد طاهر ١٢٢٨ وذهبها».

وقد وفق السلطان محمود خان العدلى فى إحياء هذه المآثر لوالى مصر محمد على باشا بتعمير وإصلاح المساجد والآثار التى تخربت وإحيائها وكتب بذلك إلى والى جدة ومحافظ المدينة المنورة نجله النجيل إبراهيم باشا وأرسل ما يلزمه من المبالغ ولوازم البناء قدر ما بلغ، واستدعى إبراهيم باشا من باب السعادة ومصر مهرة العمال الذين تمرسوا فى دقائق أعمال البناء.

كما جلب من الشام قوالب الصينى وابتدر فى تعمير هذه الآثار وإحيائها، وجدد أولاً داخل حرم مسجد الحبيب والقبة الخضراء وخارجها وبعد ذلك أضرحة البقيع ثم أبنية المساجد والمشاهد فى صورة لائقة، ثم وضع قطع الرخام التى وردت من باب السعادة فوق كمرات أبواب الأضرحة وزين كل مسجد وكل أثر كحسناء محبوبة، وعين أصحاب الأضرحة بكتابة الأبيات فوق طاقاتها ولم يترك حاجة للزوار للسؤال عن أصحاب تلك الآثار ونوعها.

إذا كان قد كتب فوق قطع الرخام التى أرسلت من باب السعادة والتى وضعت وألصقت فوق أبواب هذه الآثار والأضرحة كتب عليها بعبارة مختارة وأحيانًا بينت أسماء أصحاب الأضرحة وحقيقة الأثر وكنهه، وكانت الأبيات المذكورة ثمرة قريحة ابن كيجة جى عزت منلا المرحوم من شعراء عهد السلطان محمود خان العدلى المشهورين قد كتبت وحُكَّت مُذَهَّبَةً فى باب السعادة، ومازالت منها مذكورة فى بحث تعريف الآثار والأضرحة.

وبعد أن أتم إبراهيم باشا المرحوم بتعمير حرم السعادة أمر بكتابة المدحية[1] العبارة عن الثمانين بيت المنظومة بعبارة عربية فوق جدار القبلة الذى يقع خارج باب السلام، وكتب على الجهة اليمنى من هذه المدحية بخط أبيض فى صورة الشمس:

«قد كان الوكيل بعمارة الحرم الشريف النبوى والى مصر محمد على باشا أدام الله إجلاله آمين» وكتب البيت الشريف تحت الجملة السابقة بخط أبيض على شكل صورة الشمس:

هو الحبيب الذى ترجى شفاعته لكل هول من الأهـوال مقتحـم

وفوقه بنفس الطريقة:

ما شاء الله كان هذا باب كليم الله فى سنة ١٢٣٣.

وعلى طاق الباب المذكور كذلك: هذه عمارة الحرم الشريف النبوى فى أيام إبراهيم باشا والى جدة ومحافظ المدينة المنورة عام ١٢٣٣.

وفى نهاية هذا الكلام:

فاق النَبِيينَ فى خَلْق وفى خُلُق ولم يدانوه فى علم ولا كرم

وفوقه على هيئة الشمس كذلك: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْلِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴾ صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم..

كما أمر بكتابة التاريخ القديم الذى ظل من عهد السلطان قايتباى حول هذه الخطوط دائرًا ما دار.

وبعد أن أتم إبراهيم باشا تجديد مسجد السعادة توأم الجنة أسرع لتجديد مسجد قباء فَشَيَّدَ حرم السعادة المذكور فى صورة محكمة أحيا وجدد فى شكل جميل وبنى مبرك الناقة ومنزلة الآية ومسجد على ومسجد فاطمة، ومسجد عمر، مسجد بئر خاتم، والسبيل الذى فى هذه الناحية وسبيل السلطان أحمد فى اتصال

(١) هذا المديح قائمة صورته إلى يومنا هذا فوق هذا الجدار المذكور إلا أن معظم أبياتها محيت لدرجة أن بعض مصاريعها تلفت بدرجة يصعب معها قراءتها فلم نستطع أن ننقلها فى هذا المكان.

جدار مقبرة البقيع التى فى داخل المدينة ومسجد بغلة، ومسجد بنى ظفر، مسجد أبى بن كعب فى داخل مقبرة البقيع، ومسجد مصلى العيد المصطفوى الذى فى ميدان المناخة، ومسجد الصديق الأكبر.

ثم بنى مدرسة باسم السلطان بالقرب من باب السلام وأصلح مدرسة السلطان عبد الحميد خان فصارت فى غاية الجمال والمتانة وأحياها، وهكذا استجلبوا الدعاء لجانب السلطان السنى.

وقد طهر السلطان المشار إليه مجرى عين الزرقاء إثر السيول التى ظهرت فى سنة ١١٢٤هـ مثل البحار وخربته إلى قبة البئر ثم أعطى ثلاثمائة صرة من الدراهم لتوزيعها على الحجاج الذين أضيروا بسبب السيول كما تصدق بثلاثمائة قطعة من الملابس لتقسم على الفقراء وأهدى حصرًا وأبسطة لفرشها فى حجرة السعادة، كما أهدى خَمْسًا وسبعين قطعة من السلاسل الذهبية وأربعمائة وعشرين عددًا من السلاسل الفضية لتعلق فى حجرة السعادة، وبعض الشمعدانات لتوضع على يمين ويسار محراب النبى والمحراب السليمانى وأضاء داخل حرم السعادة الذى يشبه الجنة، وذلك فى سنة ١٢٣٥هـ.

وكانت كل واحدة من السلاسل الذهبية فى ثقل مائتى درهم وكانت كل واحدة من السلاسل الفضية مائة وأربعين درهما، وكان مع الشمعدانان عرض حال سلطانى كتبت صورته فيما يأتى:

نظم

تجـرأت أهدى الشمعدان يـــا رســـول الله
قصدى أن أخدم عتبتك العليا يـــا رســول الله
لا تليق بروضتك الثريا التى قدمتها يدى العاجز
فـــاحـــسن إلى بقبولهـــا يـــا رســـول الله
ليـــس لى أحـــد أشكـــو حالـــى

فمن جنابك الإحسان والمروءة يا رسول الله

دخيلك الأمان قد وقفت ببابك

ارحمنى وكن شفيعى يا رسول الله

فاستصحبنى فى العالمين، السلطان محمود العدلى

فالدولة لك فى الأول والآخر يا رسول الله

وبعد إرسال الهدايا المذكورة علم من قبل السلطان أن قطع الرخام التى بين الروضة المطهرة وجدار القبلة قد خربت بطريقة سيئة وبناء على الأوامر الصادرة أصلحت وجددت قطع الرخام التى فى المكان المذكورة ابتداء من مواجهة السعادة إلى باب السلام ولما كان ما بين باب السلام إلى باب الرحمة ترابًا فرش هذا المكان وكذلك الساحة التى فى محاذاة الأعمدة فى الساحة الرملية بالقطع الرخامية، وذهبت الخطوط التى فى السقوف وعمر حمام محمد على باشا الذى كان قد فجر اللغم من قبل، وأسست مدرسة جميلة فى قرية قباء ثم حفرت بالقرب من مشهد حمزة بئر واسعة وحوض.

وما عدا هذه بنيت بالقرب من باب السلام دار توقيت على أن تكون فى إحدى جهاتها مدرسة وفى جهة غرفًا للمؤقتين، كما أُسِّسَ أمام دار التوقيت سبيل جميل وهكذا أحيا أهالى المدينة.

وبما أنه أرسلت ساعة من باب السعادة لتوضع فى داخل دار التوقيت وتاريخًا لِيُحَكَّ فى أعلى طاق المبانى التاريخ الذى حرر بالشكل اللائق، فوضعت الساعة فى مكانها الخاص كما حُكَّ التاريخ فوق كمر باب دار التوقيت وذُهِّبَ وهذه صورة تاريخ دار التوقيت:

التاريخ

قد قام ملك ملوك الزمان بأثر محمود

بنى فى داخل حصن المدينة هذه الدار للتوقيت

كن من هذا الارتفاع الصامت دليلاً على عظمة السلطان
قـــد زاد الزمـــان ساعـــة بعـد ساعـــة بـــنوره
فليمـــلأ الدهـــر بمفتاح الشريفـــة مثـل الساعة
فلتكـــن روح النـــبى فى عـــون ذلك السلطـــان دائمًا
قـــد زين بهـــذا الشكـــل زينـــة محمود التاريخ
السلطان محمود هو الذى أوجد دار التوقيت
فى سنة ١٢٥٣.

وبعد تصليح دار التوقيت المذكورة بسنة ونصف كان قد أرسل من باب السعادة خمسة أنفار من المجلدين لتعمير وتذهيب الكتب الموجودة فى دور كتب المدينة المنورة، وأُعْلِمَ باب السعادة أن هؤلاء المجلدين قد عاينوا دور كتب المدينة المنورة بواسطة موظفى الدولة وعمروا سبعة آلاف مجلد من الكتب وذهبوها، وقد أُجرِ كل واحدمن هؤلاء ألفًا وخمسمائة قرش معاشًا شهريًا.

ولما كان نظام خدمة حرم السعادة احتاج للإصلاح صدر الأمر السلطانى أن تكتب أسماء الخدم، فى دفاتر خاصة وقد جعل لعشرة من الشيوخ ثلاثون قرشًا وقد خصص للشيوخ أجرًا أسبوعيًا مقداره أربعون قرشًا وللفراشين خمسة وعشرون قرشًا وأكرم الجميع بهذه الطريقة وذلك فى سنة ١٢٥٥.

ومازال هذا النظام مرعى الجانب إلى الآن وكل شيخ يقوم بأداء مهمته أسبوعيًا مع رفقائه، وفى يوم الجمعة يحصلون على أجورهم الأسبوعية ويعودون، والذين لا يواظبون فى أداء خدماتهم تخصم منهم يومياتهم بموجب الدفتر.

وأرسل السلطان المشار إليه إلى حرم السعادة نسخة من البخارى والشفاء الشريف كما أرسل ثلاثين عددًا من الكلام القديم[1] وثلاثين عددًا من دلائل الخيرات وثلاثين قطعة من أجزاء القرآن الكريم، وعين لتلاوة كل واحد منها شخصًا وأراح باله بأن ربط له راتبًا بمقدار كاف.

(١) يعنى القرآن.

ومازال سواء أكانت الأجزاء اللطيفة أو البخارى والشفاء الشريفين فى المسجد النبوى وتقرأ صباح مساء أمام محراب التهجد يتحف ثواب قراءتها وأجرها لروح الواقف.

ولم يخدم السلطان محمود خان الحرمين الشريفين فحسب بما عرض من الخدمات إذ إنه كذلك جدد وعمر ـ كما سنبين فى الصور الآتية ـ مسجد قباء، والمساجد الأخرى والآثار العالية وأضرحة مقبرة بقيع الغرقد التى هدمها وخربها طوائف الخوارج الرذيلة، ومشهد حمزة، ومقبرة الشهداء، والمشاهد الأخرى والآثار المسعودة، كما أمر بكتابة منظومة فوق أطواف المساجد والآثار.

خارقة

كان السلطان محمود خان العدلى جدد غطاء مرقد السعادة الذهبى للمرة الثانية، والغطاء الذى أرسله فى المرة الثانية، حينما وصل إلى الحجرة المعطرة وشرع فى تغطية المرقد لزم قلع الغطاء القديم، وبينما شرع فى قلع الغطاء القديم الذى قد سكر باحتضان القبر النبوى الشريف عدة سنوات صدر من الهاتف صوت حزين يقول واه حسرتاه واه فرقتاه وهكذا عرض ذلك الغطاء نار حسرته وفرقته وقد سمع هذا الصدى المثير للشوق كل من كان فى داخل الحجرة النبوية وفقدوا عقلهم وشعورهم.

وإن كانت هذه الخارقة غير مصدقة عند أهل الاستدلال، إلا أن الذين يصدقون أن الجذع الشريف الذى ارتمى على الأرض وأصبح جذاذًا وأخذ يئن ويصيح عندما وضع مكانه منبر السعادة لا يستبعدون ظهور مثل هذا الصوت عندما كان الغطاء القديم يخلع من على المرقد النبوى.

لمن يوفق أحد من ملوك الأسلاف إلى إسداء الخدمات لحرم السعادة مثل ما قدمها السلطان الغازى عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الثانى، إذ لم يترك ذاته السلطانية مكانًا فى مسجد السعادة أو الحجرة المعطرة لم يجدده أو يعمره، إذ بنى ٢٩ قبة فوق السقف القديم الذى صنعه السلطان مراد الرابع والذى يقع الآن فى الجهة القبلية من الساحة الرملية كما هو مبين فى الخريطة

الخاصة، كما جدد القباب الموجودة منفقًا ما لا يحصى من النقود، وفرش فوق أسطح القباب الموجودة بقطع من الرخام المجلاة، وعنى بتزيينها، وجدد الخطوط التى فى داخل مسجد السعادة وخارجه وهى التى تحدد حدود الحجرة المعطرة وقطع رخام حرم السعادة عامة، وهكذا قام بخدمة عظيمة فإنه أسس أبنية المسجد النبوى الشريف المسعودة من جديد، وأسس فوق باب التوسل مكاتب وعدة مخازن أعلاه وأسفله فأصبح باب حرم السعادة فى غاية اللطف مؤخرًا. رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

دخول السلطان عبد المجيد فى حجرة السعادة

يروى أصحاب الوقوف من أهالى المدينة ومهرة بنائى الحجارة الذين استخدموا فى عمليات تجديد قبة السعادة فى حق المرحوم المشار إليه حكايتين غريبتين ولكن لهما مغزى ويدعون أنهما غير قابلتين للتكذيب.

١ـ الحكاية الأولى:

نقشت الطغراء الغالية التى أرسلت من إستانبول فوق قطعة رخام مجلاة وذهبت لتكون علامة واضحة على أن السلطان عبد المجيد قد جدد وعمر مبانى الحرم العالية وعقب ختام فروغ عمليات المبانى المقدسة تركت فى جهة ما على أن توضع فوق كمر باب مناسب من الأبواب مغطاة، وكان قد مر بعض الوقت من حينه، فجاء أحد المجذوبين الذى لم يتحدث فى حياته مع أحد فأشار بأن توضع الطغراء فى مكانها بعد أن كشف غطاءها، ولم يتأخر عن الإلحاح والإصرار قبل أن تلصق الطغراء المذكورة إلى مكانها وأخبر بالأمر موظفو الحكومة، وإذا فى ذلك اليوم كان السلطان عبد المجيد قد ارتحل إلى قصر سواحل الجنة وجلس مكانه أخوه عبد العزيز خان! وعلم بهذا بعد ذلك بخمسة وعشرين يومًا.

وبما أننا لا نصدق مثل هذه الحكاية فضلاً عن أننا لا نريد أن تأخذ هذه الواقعة مكانًا فى عالم الوجود، فاستوضحنا الأمر من بعض الموظفين الذين كانوا فى مهمة تجديد تلك المبانى المقدسة فعرفنا أن الحقيقة كانت على الوجه الآتى: إن الطغراء التى حُكَّتْ مذهبة فوق قطعة الرخام وفى تاريخ إتمامها كانت أبنية حرم

السعادة وإنشاءاتها قد وصلت إلى ختامها إلا أنه ظلت بعض كتاباتها ولما أكملت هذه الكتابات فوق الرخام ونقوشها تركت فى مكان محفوظ بعد أن غطيت حتى توضع فى مكانها، وبعد فترة ما لم يبق فى الحرم الشريف محل فى حاجة إلى التجديد والتعمير ورفع رخام الطغراء من مكانه، فجاء بعض المسافرين من جانب مكة المعظمة وأتوا بخبر وفاة السلطان عبد المجيد خان فى صورة غير رسمية، إلا أن هذا الخبر لم يوثق به ولم يعتمد عليه، ومن هنا أخذ خطباء المسجد يذكرون فى خطبتهم يوم الجمعة اسم السلطان عبد المجيد ويدعون له وقالوا: لو كانت هذه الرواية صحيحة جاءتنا الأخبار من جانب الإمارة الهاشمية فى مكة المكرمة وكنا نؤمر بذكر اسم عبد العزيز خان وتلاوته وهذا لزوم شرعى، وكان لابد أن يأتى الأمر السلطانى يشهد بجلوس السلطان عبد العزيز وكان ما قالوه معقولاً.

وبما أن عمليات مبانى حرم السعادة أصبحت رهن الختام ولم يبق لقائل أن يقول: «فى هذا المكان قصور أو نقص» إذ أصبحت الروايات المتواترة أن من ينظر إلى المبانى العالية يراها مازالت ناقصة ومن هنا كان يلزم تبديل الطغراء باسم السلطان الجديد، ولما كان هذا خلاف الواقع وضع البَنَّاءون رخامة الطغراء التى أعدت من قبل فى مكانها فوق باب السلام وبهذا بين أن عمارة المسجد الأخيرة قد تمت فى عهد السلطان عبد المجيد الملئ بالخيرات وبهذه الجرأة المقدرة ودلالتها بان أنه متصف بالاستقامة والنزاهة وقد عرض هذا الوضع اللائق على السلطان عبد العزيز فى صورة غير لائقة وأدى ذلك لغضب ذلك السلطان، إلا أن المنافقين الذين عرضوا ذلك الأمر على السلطان عن طريق الغمز واللمز قد ارتكبوا عن طريق الرياء المذموم ظلمًا كبيرًا؛ لأن عمارة حرم السعادة قد تمت فى اليوم الأولى من ذى الحجة سنة ١٢٧٧هـ ووضعت طغراء عبد المجيد خان الغراء فوق باب السلام وعلى طاقه، وكان السلطان عبد العزيز قد جلس على عرش السلطنة يوم الثلاثاء السابع عشر من ذى الحجة من السنة المذكورة ويوجد تفاوت قدر ستة عشر يومًا بين الحادثين، لو كان موظف مبانى السعادة امتنع عن وضع

رخامة الطغراء فوق طاق باب السلام مصدقًا رواية مسافرى مكة وكان بدل باسم السلطان عبد العزيز خان بعد الاستئذان كان سينال رضا السلطان بناء على أقوال المنافقين الذين تدخلوا فى الموضوع، وسيحظى بالتفات ونعم السلطان، ولم يكن هناك شبهة أنه سينال الترقية فى المناصب الدنيوية ولكنه بما أنه رفض أن يختار طريق الخداع والكذب للحصول على المراتب الدنيوية لأجل اجتنابه النواهى الإلهية لأنه كان سيتعرض للمسئولية وغضب الله، ولا شك أن عرض الإخلاص والعبودية عن طريق الحيل والخدع والدسائس لم يكن أمرًا مقبولاً ولا مقدرًا لدى السلطان عبد العزيز خان، فلنفرض أن بعض أجزاء من حرم السعادة قد تم تعميره فى عهد السلطان عبد العزيز واكتملت تعميرات المبانى فى زمنه أليس الحكم بأن تعمير المبانى قد تم فى عهد السلطان عبد العزيز خان دون النظر إلى ما بذله السلطان عبد المجيد من الجهود والهمم فى خلال اثنى عشر عامًا منافيًا لقاعدة العدل والإنصاف ومغايرًا لرضى عبد العزيز خان الذى يتصف بحبه للحق والإنصاف.

٢. الحكاية الثانية:

قبل أن يرى خبر وفاة السلطان عبد المجيد خان بشهر، قد رأى أحد سكان المدينة المنورة مِمَّنْ يظن بهم الصلاح والزهد رأى فى رؤياه أنه كان فى داخل الروضة المطهرة وإذا بذات عالى القدر ذات احتشام ملكى يدخل من باب السلام بكل وقار ووقف أمام باب الوفود وبعد فترة فتح باب الوفود وأدخل ذلك الشخص ذا السمات الروحانية داخل حجرة السعادة، هذا ما شاهده ورآه، وقد انتظر صاحب الرؤيا فى الروضة المطهرة إلا أنه رأى أن الشخص عالى القدر الذى أخذ داخل الحجرة النبوية لم يخرج خارجها، واستيقظ حينئذ من نومه وبعد فترة تلقى نبأ وفاة السلطان عبد المجيد خان واطلع بعد الحساب أن ارتحال السلطان المذكور يوافق الليلة التى رأى فيها الرؤيا، وعبّر رؤياه بأن ما قدم ذلك السلطان من خدمات عظيمة لحرم السعادة قد حظى بالقبول عندالرسول ﷺ، وفعلاً فإن هذا التعبير صحيح وهو عين الواقع.

وبناء على ما يروى من هذا الشخص المبارك الذى رأى الرؤيا أن الشخص الذى قبل فى داخل الحجرة كان لابسًا ملابس بيضاء من رأسه إلى أخمص قدميه وكان خلفه رجل يحمل سيفًا، والمظنون أن هذا الشخص هو السلطان عبد العزيز خان، قد عاد بعد دخول السلطان عبد المجيد خان فى حجرة السعادة بكل وقار وسكينة وبعد مرور خمس أو عشر دقائق دخل فى حرم السعادة عدة أنفار من الجنود ذات عمائم خضراء وأحذية سوداء.

وقد أخبر صاحب الرؤيا أن أشكال هؤلاء الأنفار كانت تشبه للجنود الذين كانوا يرافقون الحاج وسيم باشا الذى أتى بأمر تولى عبد العزيز خان الحكم خلفا للسلطان عبد المجيد، وذلك عندما جاء ذلك الباشا إلى المدينة المنورة.

ولا شك أن الذين يعرفون عظمة ما يكنه السلطان عبد المجيد من المحبة والعبودية لسلطان الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيصدقون صورة تعبير هذه الرؤيا.

وبناء على ما سطر فى تواريخ الحرمين القديمة وما يجرى على ألسنة سكان دار الهجرة ليس هناك ملك جلس على كرسى العرش مثل السلطان عبد المجيد الذى أنفق من النقود وبذل من الجهود لتجديد مسجد السعادة وتعميره وتزيينه، وبما أن المشار إليه قد جعل جميع أفكاره وشعاراته الملكية لخدمة سلطان الأنبياء فى كل آن وساعة وعرض عبوديته الصحيحة المخلصة يرون ظهور بعض الكرامات على يدى ذاته الملكية.

قد تعرض مصطفى عشقى بن عمر أفندى من أفاضل مجاورى المدينة المنورة لعلة القلب وتعرض من جراء ذلك إلى مضايقات وصعوبات فى إدارة وإعاشة أولاده؛ وعليه قرر فى فترة ما ترك المدينة المنورة والسياحة فى بعض البلاد، واستأذن من الحجرة المعطرة، وبناء على الأمر الذى صدر جاء إلى إستانبول دار الأمان فى سنة ١٢٩٧هـ وقد سطر فى آخر الكتاب الحالات التى أجبرته على

اختيار هذه السياحة والإرادة العالية التى صدرت من قبل النبى ﷺ بعد الاستخارة بالتفصيل.

ولما كان عشقى أفندى لم ير إستانبول وكان مشتاقًا لرؤية وجه سلطان العصر ومشاهداته ذهب إلى دار المولوية فى بشكطاش حين وروده إلى إستانبول وجلس فى ركن من أركانها، وبما أنّ ذلك اليوم كان يوم المقابلة شرف الخانقاه المذكورة السلطان عبد المجيد، ولما لفت شكل عشقى أفندى الأنظار السلطانية بعث بموظف خاص يسأله عن اسمه ومن أين أتى، وأين يستضاف ولم يعرف عشقى أفندى هوية هذا الموظف كما أنه لم يعرف الشخص الذى أرسله، حتى أنه لم يعرف أن السلطان فى تلك التكية، ولكنه عرف أنه سيكون الاجتماع فى يوم الجمعة فى مسجد بكلربكى اللامع الأنوار، فذهب فى ذلك اليوم هناك حيث وقف فى الممر السلطانى بكل تعظيم، وكان غرضه رؤية جمال وجه السلطان ولما جاء السلطان عبد المجيد فى محاذاة عشقى أفندى توقف وقال لرئيس كتابه مصطفى باشا: «يا باشا سلم من قبلى لهذا الشخص، وبما أنه شرف إستانبول حديثًا فلينعم قدر ما شاء وليتنزه وليشاهد جميع أماكن باب السعادة، ولا يفكر فى أولاده وعياله».

إننى أفكر فى أولاده وعياله نائبًا عنه، قد خصصت له راتبًا ثلاثمائة قرش، فليعش مستريح البال مادام حيًا وليدعو لدولتنا بقوتها وبقائها!!!».

هل هناك كرامة أكبرمن هذا لأجل سلطان؟ ومن هنا يقال إن السلطان عبد المجيد قد حظى بحسن القبول لدى الجانب النبوى العالى كما أنه قد كلف تنفيذ الأوامر النبوية، لأن عشقى أفندى كان قد أرسل من جانب النبى عظيم المناقب لطفًا به.

انتهى.

فى تعريف كيفية تعمير حرم السعادة وتجديده فى المرة السابعة

قد قام بتعمير الحرم الشريف، ممسح جباه الموحدين والذى يقوم بخدمته الملائكة خدم سيد المرسلين، قد قام بتعميره وتجديده للمرة السابعة السلطان الغازى عبد المجيد خان بن السلطان الغازى محمود خان العدلى.

وجه إلى شيخ المهندسين محمد رائف باشا من الثلاثة ذوى المكانة عند الوكلاء من محافظة طرابلس الغرب سابقًا ومن كرام الأمراء وأحيل إليه وظيفة أمانة المبانى وأرسل إلى المدينة المنورة.

وخرج محمد رائف باشا من باب السعادة فى ربيع الأول سنة ١٢٦٧هـ ووصل فى اليوم الثانى والعشرين من شعبان فى نفس السنة إلى المدينة المنورة وشغل بإتمام ما لم يتم عمله من الجبل طريق الأمر الذى سواه سلفه حليم أفندى الصغير، واقتلع الخيم التى تؤوى العمال والآلات التى فى الجبل الأحمر وبنى مكانها دورًا حتى يحمى العمال والأدوات من عربان البادية والحيوانات المتوحشة وعلى بعد عشرة أذرع من هذه الدور حفر بئر يبلغ عمقها خمسين ذراعًا.

الحوادث المحلية

عندما أتم محمد رائف باشا حفر البئر وأخذ العمال يستفيدون منها، عصى عربان البادية وتسلطوا على قوافل الحجاج وأبناء السبيل، وحاصروا المدينة المنورة وقطعوا الطرق والموارد عنها حتى يضيقوا على العمال والمسافرين وجيران سيد المرسلين، ومنعوا جلب الحجارة من الجبل الأحمر إلى المدينة كما منعوا جلب المياه إلى العمال من البئر سالفة الذكر وهجموا على العمال ونهبوا الحيوانات الأميرية وعملوا على قتل من يصادفهم من الناس وتسلح عمال الجبل الأحمر

وأنشئوا متاريس وأبراج لحماية أنفسهم، مع أن العربان حاصروا الجهات الأربعة للجبل الأحمر و أخذوا يسببون الخسائر للمحاصرين وكانوا يهربون كلما أرسل ضدهم الجنود والعساكر وقد تصدعت المواضع التى رممت من قبل من مسجد السعادة، كما أشرفت بعض مواضعه على الانقراض، وساءت حالة المسجد إلى أقصى درجة من درجات السوء فى خلال سنة ١٢٦٠هـ، ولما كانت السقوف والقباب قد تصدعت فى عدد من المواضع وخيف من سقوطها فجأة، أسف موظفو الحكومة لذلك أشد الأسف وحاروا فيما يفعلون، ثم اجتمعوا للتشاور وتدبير الأمر، فقر قرارهم على رفع الأمر إلى الباب العالى.

وقد وصلت حالة الأبنية فى عهد داود باشا شيخ الحرم رحمه الله، إلى درجة من السوء بحيث كان الأهالى الكرام يتحاشون الاقتراب من بعض مواضعها، وكانوا يدعون الله كى يلهم السلطان بما ينبغى عمله نحو حرم السعادة، وفى نهاية المطاف اتفق أعيان المدينة وسادتها على رفع الأمر إلى داود باشا الذى كان فى شدة الألم من إشراف مبانى الحرم النبوى الشريف على الانقضاض وكونها فى أشد الحاجة إلى التعمير والترميم، فما كان من داود باشا إلا أن أحضر الدواة والقرطاس وكتب إلى مقام الصدارة العظمى رسالة بين فيها إشراف مبانى الحرم النبوى الشريف على الانهيار ما لم ينظر إلى حل هذه المشكلة الآن وأرسل هذه الرسالة إلى باب السعادة فى سنة ١٢٦٣هـ.

ولما وصلت رسالة داود باشا هذه إلى باب السعادة وعلم فحواها أولو الأمر أدركوا الحالة التى وصلت إليها أبنية حرم السعادة، وحصلوا على معلومات كافية بخصوص هذا الأمر، وقد شكلت لجان فى دار الإفتاء السلطانى لمذاكرة الأمر فى عمق، وفى ظل المسائل الشرعية، ثم قرروا كإجراء أولى إرسال مهندس مجرب ليقوم بالكشف على تلك الأماكن ثم يتداولون الأفكار وفقًا لما يرسمه ذلك المهندس من خريطة لتلك الأماكن، وبناء على الأمر السلطانى الذى صدر بعد

الاستئذان أرسل فى رفقة رمزى أفندى من رجال الدولة أمير الاى عثمان بك الأمرد من ضباط دائرة المدفعية السلطانية العامرة وبعد أن شرح له الموضوع وبينت الكيفية أرسل إلى المدينة المنورة.

ووصل رمزى أفندى مع عثمان بك إلى دار الهجرة واطلعا بناء على القرار العالى على أحوال المسجد النبوى الشريف وعادا إلى الأستانة وعرضا الخريطة التى خطوها وشرحا رأيهما ووجهة نظريهما ثم اجتمع الوزراء فى دار الإفتاء السلطانية والمجلس الخاص ودققوا النظر فى الخريطة المذكورة وعاينوها، وقرروا تجديد المسجد بتعميره وبناء على صدور الأمر السلطانى بذلك أرسل حليم أفندى الصغير مدير الأبنية الخاصة من رجال الدولة العلية بوظيفة الإشراف على المبانى المفتخرة إلى مدينة الرسول فى سنة ١٢٦٦هـ.

وأرسل المهندسون وعمال البناء المهرة والعمال والأشياء المتنوعة عن طريق باب السعادة[1] ومن مصر القاهرة بالتتابع، كما أرسل ما أمكن تدبيره من النقود تدريجيا، وأبلغ شيخ الحرم النبوى وقاضى المدينة المنورة بإشعارات مختلفة على أن يبدأ العمل بعد أن شكل مجلس خاص من مشاهير السادات والعلماء من المدينة المنورة يتولى توصية العمال الذين سيرسلون بحسن أداء أعمالهم وأن يحافظوا على الأدوات المرسلة من التلف وأن يعملوا فى الإنشاءات وفق الشريعة الأحمدية وأن يعملوا بكل تعظيم وحرمة لصاحب المقام وألا تصدر منهم ألفاظ مخلة بالآداب وألا يرفعوا أصواتهم وألا يقوموا بحركات غير لائقة وأن يعنوا أعظم عناية بأداء صلواتهم فى جماعات كما فى السابق، وقد أمر السلطان ذو الخصال البايزيدية أن تكون المبالغ التى ستنفق فى تجديد حرم السعادة من الحلال

(١) كان حسين أفندى معاون الأبنية من أصحاب الرتبة الثانية قد عين مشرفًا على تحسين الرواتب التى ستربط لمعيشة أولاد وعيال العمال المسافرين ولإرسال العمال والأدوات اللازمة التى ستدبر من باب السعادة فى الوقت المحدد إلى المدينة.

وقد فضل حسن شوقى أفندى عمله الخاص بحرم السعادة على أشغاله الأخرى وقام به أحسن قيام وقد نال إخلاصه فى عمله هذا تقدير الجهات العالية ولما أريد مكافأته على إخلاصه دنيويًا قد كوفئ فى ختام عمله بأن أحسن إليه بقطعة من وسام مجيدى قيم سنة ١٢٧٩.

الطيب مهما كان مقدارها ولما كان إنقاذ واردات الخزانة المالية السلطانية من الواردات المخلوطة من شبهة لضيق الوقت، فكلما احتيج إلى إرسال النقود إلى المدينة المنورة لتعمير الحرم النبوى كان يبادل ما تهيأ فى الخزانة السلطانية من أموال مع من يثق بهم من الذوات عن طريق الاقتراض أى كان يرسل هذه المبالغ موافقة لأحكام الشريعة الغراء.

وقد سطر فى التواريخ القديمة أنه كلما احتاج الحرمان الشريفان ومبانيهما للتجديد والتعمير أن الأموال التى ستنفق لذلك كانت تصرف من أموال الجوالة التى يصدق العلماء أن أموالها حلال.

وكان السلطان عبد المجيد خان يرسل الأموال اللازمة للإنفاق على الأبنية المذكورة على الوجه المشروح السابق رحمه الله رحمة واسعة.

أرسل حليم أفندى الصغير الذى أسندت إليه عهدة البناء عندما وصل إلى ينبع رئيس البناء الحجرى نواحى دار الهجرة لعلهم يجدون محجرًا، كما أنه توجه نحو المدينة المنورة ووصل إليها فى أوائل رجب الفرد وتفقد لوازم البناء التى وصلت قبله وبعد أن جمع ورتب مجلس العلماء الذى أمر بتشكيله بالإرادة السنية، فأراد أن يشرع فى عمله باتفاق الآراء، ولكن بما أنه كان فى حاجة إلى تهيئة الأحجار التى تستخدم فى البناء وتسهيل الحصول عليها اضطر أنْ ينتظر وصول رئيس البنائين إبراهيم أغا، إلا أن إبراهيم أغا عاد يائسًا من أنه لم يصادف معدنًا من هذا القبيل، وطلب منه أن يبعثه إلى مكان آخر مع الحجارين حتى يتحرى عن الحجارة، وتشكل عندئذ مجلس ليبحث هذا الأمر فرأى المجلس أن يرافق المجلس لإبراهيم أغا عدة حجارين من أهل المدينة وشرح له الجبال التى يحتمل وجود الحجارة فيها، وتحرى إبراهيم أغا هذه المرة جميع الجبال التى حول المدينة المنورة ثم وجد فى جهة بيارعلى من وادى العقيق على بعد ساعتين من المدينة المنورة فى جهة مكة المكرمة، محجرًا غنيًا بالحجارة وكانت هذه الحجارة

المستخرجة غاية فى اللطف وكان لونها قريبًا من اللون الوردى، فسُرَّ أفراد الهيئة و أهالى المدينة من هذا الأمر وقالوا: «إن ظهور هذا المعدن من جملة ما وفق فيه السلطان».

وهذا عين الصواب، ولا يخفى على الذين يقفون على الوقائع التاريخية لمدينة الرسول ﷺ أن الملوك الذين بذلوا المساعى والجهود لتعمير مآثر البلدة النبوية لم يوفقوا فى كشف معدن مثل ذلك واضطروا لجلب تلك الحجارة اللازمة للتعمير من مصر والجهات الأخرى البعيدة، وقد ظهر هذا المعدن اللطيف فى وادى العقيق الذى عظم قدره بحديث مخصوص.

العقيق

كما عرف فى مكانه واد مبارك، كان اسمه القديم السليل، ولما قال تبع الحميرى هذا عقيق الأرض فعرف باسم العقيق، ومن المحتمل تسميته بهذا الاسم لاحمرار رماله.

غريبة

بينما كان إبراهيم أغا يتحرى عن الحجارة فى الجبال مع أصحاب الوقوف من أهل المدينة، ظهر شخص على شكل أعرابى وقال له: «يا إبراهيم أغا إننى أعرف فى هذه الأماكن معدنًا، تعالى أريك إياه. قد ينفعك فقادهم وهو سائر أمامهم إلى الجبل الأحمر حتى وجد ذلك المعدن فى هذا المكان وأراه لهم، وسر إبراهيم أغا من مروءة هذا الأعرابى وأراد أن يكافئه بعطية، إلا أن الأعرابى قد اختفى عن الأنظار فى الحال.

إن هذه الإشارة علامة شاملة البشارة على أن خدمات والد السلطان كثير المحامد قد حظيت بحسن القبول عند رسول الله ﷺ.

ونصب حليم أفندى على الجبل المذكور الخيم وبعث الآلات والأدوات اللازمة: النجارين، والحجارين وفتح منجمًا فى قمة الجبل، ورفع الصخور التى عليه فاستخرج قطع حجارة كبيرة وأمر بنحتها لتكون صالحة للاستعمال.

لأن الحجارة التى استخرجت كانت غير قابلة للنقل من جهة إلى أخرى فضلاً عن نقلها وحملها على الجمال، وفى الآخر سوى الطرق التى بين الجبل المذكور والمدينة المنورة، وهيأ مكانًا واسعًا خاصًا بالحجارين، وبعد مدة عين محمد رشيد أفندى محافظ المدينة وكيلاً له ثم عين شريف أفندى من أقاربه لرياسة معتمر العمال، ولما ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج انقطعت أنفاسه الأخيرة فى منى وارتحل عن دنيانا، ورحل حليم أفندى الذى أتى من باب السعادة كما أن أشرف أفندى هو الآخر قد ارتحل عن دنيانًا فى منى أيضا بعد وفاة حليم أفندى.

وكان هذا الشخص قد أرسل من قبل حليم أفندى إلى باب السعادة بعض ذهب مجيدى من فئة مائة، وإثر وفاته قد اخذت هذه المبالغ الذهبية بمعرفة الحكومة وأرسلت إلى شورى هيئة البناء المقدس. وإن كان حليم أفندى قضى ما يقرب من ستة أشهر فى مهمة البناء المقدس وبذل جهده لأداء عمله على أحسن وجه إلا أنه فى أثناء هذه المدة وجد المعدن المذكور وسهل الصعوبات التى ظهرت فى نقل تلك الحجارة من الجبل الأحمر ومهده وبنى محلاً خاصًا لتقطيع الحجارة ونحتها فى موقع يطلق عليه دار الضيافة وجهز الآلات والأدوات اللازمة فقط ومن هنا لم تتقدم عمليات مسجد السعادة.

وعقب وفاة حليم أفندى أرسل رجل يصدق لدى الباب العالى درايته وأهليته، لكشف أبنية مسجد المدينة المسعودة ومعاينتها إلى دار السكينة، وقرر فى مجلس الوزراء الخاص تفويض هذا الأمر الجليل إلى محمد أسعد[1] مؤلف «دريكتا» من أجلاء العلماء المتبحرين الذى قرر أن يذهب فى تلك السنة إلى

(١) محمد أسعد أفندى المشار إليه يعرف باسم إمام زاده وكان فى ذلك الوقت من أعضاء المجلس الأعلى.

أراضى الحجاز لأداء فريضة الحج، واستأذن السلطان فى هذا الأمر وصدرت الإرادة السنية بذلك وأخبر بذلك أسعد أفندى وكان فى هذا الكشف الثانى والى الحجاز آكاه باشا أيضا ولما فسر قرار مجلس الوزراء بخصوص كيفية كشف ذلك المقام السامى بطريقة مع داود باشا شيخ الحرم النبوى، وبين له المهمة التى كلف بها ثم استفسر منه فى أثناء حديثه عن الذين يقتضى وجودهم معه فى أثناء كشف الأماكن المقدسة، وسر داود باشا من اختيار محمد أسعد لهذه المهمة وبين له أصحاب المعلم فى هذا الموضوع ذكر أسماؤهم وأسرع بتشكيل هيئة كشف من سادات البلد وموظفى الحكومة ومن العالمين بكشف المكان وأصحاب الوقوف فيه.

وقد كشفت تلك الهيئة وعاينت داخل حرم السعادة وخارجه وعثرت على الجدران المتشققة والقباب التى بليت والسقوف التى مالت للسقوط والانهيار وبعد أن رأى تلك الأماكن قال شيخ الحرم، السيد المحترم، قد عرفتم أن تعمير الحرم الشريف قد وصل إلى درجة الاستحالة، فإذا ما أصلح بعض أماكنه بإنفاقه نقود طائلة، فمن البديهى أن المواقع الأخرى ستحتاج إلى الإحكام والإصلاح وهذا بديهى، وإذا التزم جانب إصلاحه وتعمير بعض أماكنه فعلى هذا التقدير سيكون قد فتح باب لصرف نفقات باهظة بإصلاحه كل عام.

إلا أن محمد أفندى أسعد قال: «إن المبالغ التى ستنفق لتعمير أبنية الحرم النبوى تقتضى أن تكون من الحلال الطيب المطلق»، وألمح أنه ليس مع الذين يريدون أن يعمروا الحرم النبوى كاملاً وبين أنه يمكن إحكام الحرم النبوى بتعمير بعض جهاته، وأسكت الذين يقولون بأن تعمير بعض جهات الحرم النبوى مضر للخزانة السلطانية.

وقد تأثر شيخ الحرم داود باشا[1] من رأى محمد أسعد أفندى أعظم تأثر كما

(١) منذ أن دخل الحجاز فى حوزة السلاطين العثمانيين إلى يومنا هذا لم ير الناس شيخًا للحرم فى نبل داود باشا.

أن الأهالى عامة تغيروا منه ولم يلتزموا جهة إقناعه بإتيان أدلة مقنعة ولكنهم بالاتفاق توجهوا ناحية سلطان الأنبياء ـ على نبينا وعليهم التحايا ـ وعطفوا النظر إلى الحجرة المعطرة وحصروا أنظارهم قبل حضرة النبى ﷺ لعله تصدر منه إشارة معنوية، وسكتوا عن الأمر.

ولما رأى محمد أفندى أسعد تأثر داود باشا وأعاظم أهل المدينة وساداتها وعلمائها واغبرارهم، ندم على أنه اتخذ رأيًا يؤدى إلى إنقاص الخاطر، إلا أنه على حق لأنه ما كان يستطيع أن يتصرف خلاف التعليمات التى صدرت له من الباب العالى.

سقوط قبة. كان ذلك عقب أداء صلاة الصبح بعد أن شكل محمد أسعد أفندى الهيئة الكشفية لكشف ومعاينة مسجد السعادة، وعقب القرار أخذت تسقط قطع طلاء قبة من القباب التى فى مقدمة الجهة القبلية من حرم السعادة، وكأنها تخطر بلسان حالها لزوم تجديد أبنية المسجد، الشريف المقدسة، إن هذه الحالة قد أقنعت إمام زاده بلزوم تجديد المسجد، قد أدت الأنقاض التى سقطت من القبة إلى مقتل الشيخ محمد إسكندر الذى كان يقف أمام نافذة المواجهة النبوية وفى النقطة التى يقف فيها من يزورون عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ولو وجدت الهيئة الكشفية فى النواحى التى وقعت الأنقاض فيها فى هذه الساعة، لحدثت مصائب أكثر من ذلك، قد توفى محمد أفندى متأثرًا بإصابته بالجرح فى رأسه وتوفى قبل أن ينقل إلى الحى الذى يسكن فيه، وكان من الإسكندرية ومن أجلاء طلاب الشيخ الصاوى وكان رجلاً فطنًا وغاية فى الإخلاص، رحمه الله رحمة واسعة وانهار عقب هذه الواقعة جهة سقف من سقوف مسجد السعادة فى الجهة الشرقية وبما أنه لم يكن تحته إنسان لم يتسبب فى أية خسائر فى الأرواح.

ولما ظهرت تلك المعجزة المذكورة استيقظ إمام زاده من نوم غفلته الثقيل وفهم رأيه السقيم وأذعن لخطئه وأخذ يستغفر نادمًا وصدق قرار مجلس المدينة سالف الذكر ونقل مكانه مدير الخزانة النبوية عبد اللطيف أفندى وعين بدرى أفندى من

الكتبة لكتابة مصاريف الأبنية السعيدة، وأمر بفتح المضيفة التى فى الجهة الشامية من المسجد وجعلها سكنًا للكتاب والعمال كما عين إسطبلات عديدة للحيوانات التى تستخدم فى عمليات البناء وعاد بعد ذلك إلى باب السعادة وكتب تقريرًا عن مشاهداته الذاتية ومطالعاته من أولها إلى آخرها.

وبناء على المضبطة التى فهمت من قبل الباب العالى وبناء على التقرير الذى قدمه محمد أسعد صدرت الإرادة من الخلافة المعظمة بسرعة إجراء ما يقتضيه الحال.

ولما عاود العمال العمل مرة أخرى فى إعمار حرم السعادة كان العربان يتعدون على العمال، وقد دامت هذه الاضطرابات فترة طويلة وفى النهاية أرسل من باب السعادة الفريق الحاج خالد باشا فشتت شملهم وذلك فى سنة ١٢٧٤هـ.

وكان محمد رائف باشا فى أثناء عصيان العربان يسعى لأداء مهمته ويهتم بالمحافظة على الجهات التى فى الجبل الأحمر وطريقه ومع ذلك يتأسف ويحزن كلما رأى حال مؤخر حرم السعادة المؤسف ويضطرب، لأن فى الوقت الذى بين وفاة حليم أفندى وتاريخ وصوله إلى المدينة توقفت عمليات بناء الأبنية المقدسة فساءت حالة بعض جهات مؤخر حرم السعادة وأوشكت على الانهيار فجأة وبناء عليه قد قويت الأعمدة التى اعوجت بدعامات وبهذا قد أنقذت لوقت قليل من المخاطر الآتية، بعد ما أحكم محمد رائف باشا تلك الدعائم كشف وعاين بكل دقة وعناية حرم السعادة وفهم أنه إذا لم تقتلع الأعمدة المعوجة وتركز أعمدة جديدة رصينة فى أماكنها لن يسلم سقف مؤخر المسجد النبوى من الخطر، ولن تنقذ الساحة الرملية من الضيق والازدحام إلى أن يفتح باب فى الجدار الشامى وذلك بنقل قبة الشمع الكائنة فى الساحة الرملية إلى خارج الجدار الشامى، ونظم فى هذا الخصوص خريطة كاملة وعرضها على من يهمه الأمر وقال: «إنه يجب أن يطلق على هذا الباب، الباب المجيدى وتنشأ على جهتى هذا الباب مدارس فوقه وتحت وأن نطلق عليها، مكاتب مجيدى، وأرسل نسخة من هذه

الخريطة إلى الباب العالى ليعرض على الأنظار السلطانية وإذا ما استلم هذه الخريطة فإنه سيحدد مؤخر حرم السعادة وفقًا لهذه الخريطة.

ولما كان نقل قبة الشمع خارج الجدار الشامى وإنشاء مدارس خاصة من أجل الصبيان خدمة عظيمة تسدى لرعية المسجد النبوى الشريف.

من هنا كان تدبير محمد رائف باشا الواقعى من جميع الوجوه يستحق التقدير بل الحمد والثناء لأن أطفال سكان المدينة المنورة كانوا يتلقون تعليمهم الابتدائى قبل قباب مؤخرة حرم السعادة فى حالة متفرقة وكانوا يقومون حسب الصباوة بحركات غير لائقة، ولما كانت هذه الحالة تخالف الحديث الشريف الذى رواه ابن ماجة عن واثلة بن الأسقع والذى يقول ما معناه: «أبعدوا عن مساجدكم أطفالكم ومجاذيبكم وامنعوا البيع والشراء والخصومات وإقامة الحدود ورفع الأصوات وسل سيوفكم واجتنبوا مثل هذه الحالات وداوموا فى تبخير مساجدكم أيام الجمع»[1].

ولما كانت فى تلك الأوقات فى الحرم الشريف نظيفة، كما أنه لم تنعم جماعات الموحدين فى الحرم الشريف بالسكون من وقاحة من يسمون بالمجاذيب من الحمقى غير المتدينين، كما أنه لم يبق مجال للتأمل والتفكير أمام المواجهة النبوية من ثرثرة المزورين والأغوات، ووجود قبة الشمع فى الساحة الرملية وإدخال الجمال التى تحمل زيت الوقود من باب الرحمة إلى حوض تلك القبة قد أخلت نهائيًا بالتعظيم والرعاية اللازمين للحرم الشريف.

وقد حظيت الخريطة المرسلة إلى باب السعادة بالتقدير وأمر أن يجدد مؤخر الحرم الشريف كما جاء فى الخريطة المذكورة وأن يحول اسم الباب المجيدى إلى أسم باب التوسل وأن يؤخذ آراء ورضا أهل المدينة بخصوص الأماكن التى

(١) ونص الحديث: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وخصوماتكم، وأصواتكم وسل سيوفكم وإقامة حدودكم، وجمروها فى سبع واتخذوا على أبواب مساجدكم المطاهر» وحديث واثلة رواه ابن ماجة ورواه الطبرانى عن أبى الدرداء وأمامة وواثلة، وينحوه عن معاذ بن جبل وانظر: مجمع الزوائد للهيثمى ٢ / ٢٥ ـ ٢٦.

يقتضى الأمر تجديدها، بهذا صدر الأمر السلطانى وأبلغت الكيفية إلى محمد رائف باشا بالرسالة وبناء على التحريرات السامية التى وردت عرض الباشا تلك التحريرات إلى من يقتضى الأمر عرضها عليهم وبين أنه سيعمل وفق هذه الأوامر السلطانية وإن كان بعض الأهالى اعترضوا على تغيير الأساطين وقالوا: «لا لزوم لتغيير الأساطين، وإذا ما غيرنا الأعمدة التى ظلت لمدة مديدة فى مؤخرة حرم السعادة وجاورت الحجر المعطرة نكون قد ارتكبنا نوعًا من عدم الرعاية؛ ولأجل ذلك يقتضى الأمر إبقاء هذه الأعمدة فى أماكنها وتقويتها بدعائم كما أن القباب التى تحملها تجدد بهذا الشكل». وبهذا التزموا القول الذى يقول بإبقاء جميع الأعمدة التى فى مؤخرة حرم السعادة وأن تعمر وتجدد دون أن يحدث أى تغير فى جميع جهات الحرم النبوى الشريف.

فأجابهم محمد رائف باشا قائلا: «إن هذه الأعمدة كثيفة جدًا أولاً وضيقة وبالية، فإذا ما اقتلعنا هذه الأعمدة وحولنا وبدلنا أماكنها نكون قد وسعنا أماكن الصلاة، كما ننقذ القباب التى ستصنع من المخاطر المستقبلية، وكافة الأعمدة القديمة قد ركزت فوق حجارة عادية وبما أن تلك الأحجار قد وضعت فوق الأرض وقد تكسرت بثقل القباب وتضييقها وظلت، الأسياخ الحديدية التى فى أطرافها فى الأرض».

وإذا ما لم تغير هذه الأعمدة فالقباب التى تقرر تجديدها مهما كانت خفيفة تحطم الأعمدة القديمة التى يراد إبقاؤها كما أنها تقتل من تحتها منهارة بعد مرور وقت قليل، وإذا لم نهتم بالمخاطر المعروضة وبنينا القباب، نكون قد بذرنا الأموال بعملنا وهذا عمل يخالف الشريعة الغراء وهو عمل غير معقول لا تقبله ضمائر الموحدين، وإذا ما اسْتَرْخَصْنَا بصنع القباب التى صدر الأمر السلطانى بتبديلها بالبناء فالقباب الخشبية التى سنصنعها لا تتحملها هذه الأعمدة القديمة، وإذا ما سمحتم فلنقتلع أولا واحدا من هذه الأعمدة ونعاينها».

فإن لم يتحقق ما قلته نبقيها على هيئاتها الأصلية، وإذا كانت الأخرى نلجأ لرأى عموم الناس وفكرهم و نتحرك وفق رأى الأهالى وقرارهم وبهذا الجواب المفخم أقنع معترضيه من الوجهاء والأعيان من سكان البلد فقبلوا أن يقتلع أحد الأعمدة لمعاينتها ظانين أنه سيكون فى حالة سليمة متينة نظراً لهيئتها الخارجية وجعل من أحضرهم من نجارى المدينة يعاينون ذلك العمود، وإذا بالعمود كان قد ركز فى أيام قايتباى فوق حجر أسود بال وضع فوقه التراب دون قاعدة والأحجار المذكورة قد تحطمت تحت ثقل القباب وصدمات الزمان المتقلب وتسببت فى اعوجاج الأعمدة والأسياخ الحديدية التى فى أطرافها فدست فى الأرض وتسببت فى انحراف الأعمدة عن مراكزها.

كانت الأسطوانة التى اقتلعت وعرضت على فريق العمل والأهالى كانت مكونة من عدة أعمدة مجوفة وسبب ذلك إبقاء الأعمدة على هيئتها الأصلية كلما عمر حرم السعادة وكل عمود قد صبغ مرة واحدة وهذه الصبغة قد تحجرت بمرور الأيام وظلت على شكل أسطوانة مجوفة. وابتدر قسم من سكان المدينة إذ رأوا الاسطوانة المقلوعة كما وصفها الباشا فوافقوا على تغيير الأساطين رأساً وقال قسم آخر وقد اطلع على الأمر أن الأساطين القديمة ستنتزع والقباب ستعلق فوق الأعمدة وستقلل الأعمدة وستبدل إلى أسطوانتين أو ثلاث قطع من الأعمدة الرخامية المجلاة هذا الإنسان لا يسمع الكلام، ولا يريد أن يراعى هيئات الأبنية العالية المقدسة، ويريد أن يغير ويبدل الأعمدة التى لم يمس طرازها ورسمها، كاملة ويغير أماكنها ويقلل عدد الأساطين.

وأمعنوا، أفكارهم بنشر هذه الأقوال المضرة وعملوا على تشويش أفكار العامة، لكن رائف باشا لم يعر سمعًا لهذه الاعتراضات فانتزع جميع الأعمدة التى فى مؤخرة الحرم الشريف بعد أن أسند القباب التى فيه وفق ما جاء فى الخريطة ووضع أسس وقواعد الأعمدة الجديدة التى سيركزها فى نسبة واحدة وبعد أن ملأ البئر التى حفرها بين الباب الشامى وباب الضيافة وخارج سور المدينة المنورة بالتراب والأنقاض التى نتجت عن تلك العمليات، وهدم

الجدار الشامى للحرم الشريف وأخذ يجدده وأسس على طرفى باب التوسل الذى فتحه وسط الجدار المذكور أربع مدارس مجيدية كما أسس أربعة مخازن لوضع زيت الوقود والأشياء الأخرى على الجدار الشامى وبهذا وسع الساحة الرملية قدرًا ما.

وهناك فى داخل المدينة المنورة وفى المواقع التى سيأتى ذكرها إحدى عشرة مدرسة أخرى ما عدا المدارس المجيدية التى سبق ذكرها وتلك المدارس من جملة ما بناه محمد رائف باشا.

١ ـ فى داخل الرباط الذى فى جهة الطاحونة من مسجد بهرام أغا من أغوات باب السعادة فى العنبرية.

٢ ـ هذه المدرسة فى السبيل الكائن فوق جسر سيل أبى جيد.

٣ ـ فى التكية المرادية التى خربت.

٤ ـ وهذه المدرسة بالقرب من المخبز الأميرى وهى مدرسة سليم أفندى وهو من قرناء السلطان عبد المجيد الرئيسية.

٥ ـ مدرسة الحوش التاجوري.

٦ ـ مدرسة بيت الخليفة أمام المناخة.

٧ ـ مدرسة زاوية العشاقي.

٨ ـ مدرسة زقاق النخاول.

٩ ـ مدرسة السلطان محمود خان الأول فى داخل دار توقيت باب السلام.

١٠ ـ مدرسة قبة سيدنا مالك رضى الله عنه.

١١ ـ مدرسة زقاق قفا.

وكل هذه المدارس خاصة بالصبيان الذكور وهناك مدارس كثيرة خاصة بالإناث ولا حاجة لذكرها.

وكان حفر محمد رائف باشا البئر التى خارج السور لوضع ودفن الأتربة والأنقاض المتبقية من التعمير كان برجاء الأهالى واسترحامهم، لأن الحجارة ذات الحجم الكبير التى نقلت من الجبل الأحمر كانت تصطدم ببعض المنازل ويزعج ذلك الأهالي، وبما أن الأهالى رجوا محمد رائف باشا أن يجد حلاً لهذه المشكلة فتح بابًا فى سور المدينة فى الجدار الذى يوازى ويحاذى دار الضيافة وبعد الاستئذان أطلق عليه الباب المجيدي.

والمبانى التى يطلق عليها الأهالى قبة الشمع هى المبانى التى فوق حوض زيت الزيتون الذى يحضر من مواقع معلومة والذى حفر لحفظ الزيت ووضعه فيه، وكانت الجمال التى تحمل الزيت تدخل من مدخل باب الرحمة، كما ذكر آنفًا وتوصل الزيت داخل تلك الأبنية وكان هذا العمل قد دخل فى حكم العادة بين الجمالين.

وقد وفق محمد رائف باشا بخدماته هذه فى عرض مراسم التعظيم والتفخيم للحجرة المعطرة وذلك بإخراج مبانى القبة المذكورة خارج الجدار الشامى وبتسطيحه الساحة الرملية وسع وسط حرم السعادة ووضع نظامًا حسنًا بعدم إدخال الجمال فى داخل الحرم الشريف المشحون بالنور، كما هدم وجدد الجدار الذى بين باب الرحمة والمئذنة المجيدية[1] والقباب والأساطين الكائنة فى الجهة الغربية من هذا الجدار، والجدار الذى بين باب جبريل والمئذنة الرئيسية، ومع هذا قد اعترض عليه لأنه جدد الجدار الذى فى باب جبريل، وكانت تلك الاعتراضات كلها على غير وجه حق، لأن المحل الشريف الذى هدم وجدد فيما بين باب جبريل والمئذنة الرئيسية، كان فى الجهة الشرقية من الأبنية العالية المقدسة وكان فى محاذاة قدم السعادة ذات شرف، كان الفراغ بين الحجرة المعطرة والجدار الذى هدم ضيقًا جدًا وكان يحول دون مرور الزوار وعبورهم وكان هذا الأمر يؤدى بالضرورى إلى ما يخل بآداب الزيارة وأراد

(١) كان يقال لهذه المئذنة قبل التجديد الشكلية.

محمد رائف باشا أن يزيل ما كان يحدث من عدم رعاية آداب الزيارة وأن يحقق للزائرين الطمأنينة.

وأراد أن يوسع ذلك المكان المذكور قدر الإمكان، فنقل جدار جهة باب جبريل إلى الخارج مقدار خمسة أذرع وجدده وقلل عدد الأعمدة وغير أماكنها وركز اسطوانة رصينة قوية موزونة بدل كل ثلاثة أعمدة وشيد أعمدة وقباب تلك الجهة على طراز جديد وفى شكل جميل متناسق فأعجب الناس من رصانتها وتناسقها، إلا أنه لم يهتم بما فى مؤخرة الحرم الشريف من أشياء أخرى متفرعة وتركها فى حالة خراب.

واستقبح من قبل الأهالى هدمه الجدار الذى فى ناحية القدم النبوى السعيد ونقله إلى الخارج مقدار خمسة أذرع دون أن يأخذ رأى أحد أو رضاهم وأدى إلى قيل وقال وإشاعة أقوال فى حقه ومن هنا طلب بعض خواص الناس أن يعتنى بمؤخرة حرم السعادة أيضا وأن يراعى جانبه، وقال المعترضون من عامة الناس: «إننا لم نستطع أن نبين قلة رعاية هذا الرجل وقد أظهر عدم احترامنا حينما دفن أنقاض الحرم الشريف فى البئر التى حفرها خارج السور، فإذا ما سكتنا لفعله هذا لا نكون قد أَحْسَنّا فعلاً ولهذه الحركات التى تدل على عدم الاحترام مسئولية كبيرة وهى فى أعناقنا وقد اقتنع هؤلاء الخاصة بمثل هذه الأقوال وعرضوا الأمر إلى باب صاحب القرار وقد أوردوا أقوالاً عجيبة واشتكوا من محمد رائف باشا ورجوا منه أن يعين مكانه شخصًا آخر ويرسله إلى المدينة المنورة.

ولما كانت أنقاض حرم السعادة وترابه كلما يتجدد أو يعمر تدفن فى مكان على سفوح جبل أحد وكان هذا المكان قد أحيط بسور من جهاته الأربعة، لذا كان الأهالى محقين فى هذا الخصوص، ومازال هذا المكان موجودًا إلى يومنًا هذا وهو من المزارات التى يزورها الناس ويصلون هناك ركعتى

صلاة التحية، ولكن محمد رائف باشا قد دفن الأنقاض والأتربة الناتجة من التعمير والتجديد فى البئر التى حفرها خارج السور مراعاة لمصروفات خزينة الدولة، وكان ذلك سببًا فى قول الأهالي: «إن محمد رائف باشا لا يراعى حرمة الأماكن المقدسة»

وإن كنا نحن أيضا نوافق الأهالى فى خطأ محمد رائف باشا وشكاياتهم فى حفره ذلك البئر المذكور، إلا أن تأخير الجدار التى فى مواجهة قدم السعادة إلى الخلف وما فيه من حسنات غير قابل للإنكار فادعاءات المعترضين فى هذا الخصوص كانت واهية، لأن المكان الذى وُسِعَ كان مكانًا ضيقًا فى دائرة الحرم الفاخر وكان زوار الحجرة المعطرة يعانون أعظم معَاناة عند زيارتها من الازدحام.

ولنعرف حال مسجد السعادة القديم والأماكن التى حددها محمد باشا واحدًا واحدًا بناء على القواعد الهندسية لنبين مدى ضعف ادعاءات المعترضين الذين قاموا ضده، حتى لا يظلم الموصى إليه من قبل القراء.

حال مسجد السعادة
والمواقع التى أنشأها محمد رائف باشا

كانت أكثر أماكن المسجد الشريف تتكون من سقوف واقعة على أعمدة صنعت من حجر أسود والعقود المصنوعة من الخشب، كانت الحجارة التى تشكل هذه الأعمدة قد وضعت بعضها فوق بعض قطعة قطعة وكانت قطع الحديد التى تربط بين الحجرين قد ربطت بالرصاص المذاب، وقد هدم محمد باشا هذه السقوف من جهة الشام إلى المئذنة السنجرية.

وبما أن الجدار الذى بين مئذنة السنجرية والمئذنة الشكلية والخشبية قد هدم مع المئذنة السنجرية فى أواخر عهد السلطان سليمان وحدد؛ فظلت تلك المئذنة باسم السليمانية، ولما كانت الأعمدة التى هدمت فى الجهة الشامية والتى كانت تحمل سقوفها أربعة صفوف وكانت متقاربة من بعضها وكأنها متلاصقة فجعلها محمد رائف باشا صفين وبنى عقودها من الحجارة التى أحضرها من الجبل الأحمر

وبدل القباب القديمة التى كانت مصنوعة من الخشب إلى قباب حجرية، وفتح بابًا كبيرًا فى المكان الذى يلى المئذنة السليمانية وسماه باب التوسل.

يفرض أن يكون باب التوسل فى مكان مقابل دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ كان الوليد بن عبد الملك أدخل ذلك البيت داخل مسجد السعادة، ولما آلت تلك الدار إلى حميد بن عبد الرحمن عن طريق الميراث من جده وكان النبى ﷺ اعتاد أن يُضَيِّف ضيوفه فى هذا المكان فسمى ذلك البيت فى عصر السعادة بدار السعادة.

كانت دار حميد بين مئذنتى الشكلية والسنجرية فى نقطة تتصل بخارج الجدار الشامى للمسجد الحرام وكان فى جهتها الشامية مخبز ولبعض الدور والمخازن أبواب تفتح من داخل المسجد، وكانت توضع فيها قناديل حرم السعادة والأشياء التى تتعلق بالقناديل. وكانت ميضأة[1] الأغوات التى يفتح بابها إلى داخل المسجد فى مكان متصل بهذه المخازن، واشترى محمد رائف باشا تلك المنازل والمخبز من أصحابها بإعطائهم خمسمائة وسبع وعشرين قطعة ذهبية، وهدم سواء أكانت هذه الدور أو ميضأة الأغوات وما بجوارها من المخازن ومئذنة الشكلية التى تشققت حتى الأرض والسقوف الغربية التى تتصل بهذه المئذنة وبنى يمين ويسار باب التوسل سالف الذكر مدرستين فوقيتين وجعل أقفاصًا حديدية لنوافذ هاتين المدرستين كانت تفتح إلى مسجد السعادة، وخلف الحجرات التى تصادف للجهة اليسارية من باب التوسل صنع حنفية طويلة أى شادروان ثم أسس على جهة يقال لها الزقاق الشامى من تلك الحنفية ميضأة ذات دورين بدلاً من ميضأة الأغوات كما أسس فى جهة الميضأة التى فى الدور الثانى حمامًا خاصًا يخدم حجرة السعادة، ولحمام ميضأة الأغوات باب يفتح إلى داخل المسجد وعند الضرورة يُخْرَجُ من هذا الباب بسلم كما ينزل إلى الميضأة من فوق الكمر الذى فوق الحنفية، وبعد ما أنهى محمد رائف باشا عمليات ميضأة الأغوات

(١) وكانت والدة الخليفة الناصر لدين الله هى التى أسست هذه الميضأة.

بنى أربعة من المخازن على الطرف الغربى من المبضأة أى فوق سلم المخازن التى سلف ذكرها.

ولهذه المخازن ميدان واسع مكشوف، وتحفظ فيها زيوت زيتون قناديل مسجد السعادة ولوازمه الأخرى، وقد فتح بابًا كبيرًا خارج المسجد لتدخل من المخازن المذكورة المحروقات والباب القديم الذى فتح فى داخل المسجد ترك على حاله فى مكانه لينفتح عندما يصلح قناديل حرم السعادة، وبنى فوق أرض ميضأة الأغوات مخزنًا آخر لوضع الأشياء الخاصة بالمسجد الشريف ولهذا المخزن بجانب باب المئذنة وفى داخل المسجد باب يفتح للزقاق الواقع فى الجهة الغربية من المسجد وهو باب مشبك.

وبعد أن أتم محمد رائف باشا بناء هذا المخزن أزال المخزن الذى فى جهة مئذنة الشكلية لعدم نفعه وحفر مقدار ذراع المرتفع الذى فى الجهة القبلية من مسجد السعادة وسواه وهدم الدكك التى انتشرت هنا وهناك فهدم القبة التى فى وسط الحرم الشريف، بينما هدمت هذه القبة وكانت تسوى أرضها بفرش الرمل ظهر حوض تحت الأرض ينزل إليه بالسلم، ويلزم أن يكون هذا الحوض البركة التى عرفها ابن النجار.

قال ابن النجار وهو يصف هذا الحوض: «كان فى وسط مسجد السعادة وفى الجهة الغربية من النخيل ينزل إليه بسلم من عدة درجات، قد صُنِعَ مِنَ الأحجار والجص والألواح الخشبية وكان ماؤه يتدفق من فسقية فى وسطه، وكان ماؤه من عين الزرقاء، وكان خاصًا بموسم الحج والعثور على الماء فيه فى الأيام العادية غير محتمل».

وذهب إلى أن هذا الحوض أثر من آثار أحد أمراء الشام يسمى شامة ولكن رأيه هذا لا يخلو من خطأ.

إذ قال المؤرخ المصرى: وينسب هذا الحوض إلى الأمير سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء، إن الأمير سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء حفر فى تاريخ خمسمائة وستين هجرى من عين الزرقاء إلى باب السلام فأجرى إلى الميدان الذى

بجانب الباب المذكور مقدارًا كافيًا من الماء، ومؤخرًا أدخل جزءًا من هذا الماء فى الساحة الرملية لمسجد السعادة، وصنع هنا منهلاً كما صنع فوقه كمرًا وتحته فسقية؛ كان الناس يجدون هنا وضوءهم، ثم حدث ما يهتك حرمة الحرم الشريف بجانب الحوض، بعد أن أزال محمد رائف باشا قبة الشمع من ساحة الحرم الرملية هدم ما بين جدار مسجد السعادة الشرقى مع مئذنته الرئيسية وبنى باب جبريل وسحب جدرانه إلى الخلف قدر خمسة أذرع وربع ذراع إلى الخارج وبنى مكانًا للخَلْوَة فى دورين فى الميدان الصغير الذى استُحْدِثَ نتيجة للهدم بين مئذنته الرئيسية وركن الجدار الجديد، ولم يلمس الأعمدة التى حول حجرة السعادة ودعاماتها ولكنه أراد أن يقوى ما جدده من أعمدة الجدران وعقد القباب الجديدة فركز الأعمدة فى محاذاة الأعمدة المدعمة لحجرة السعادة، وأبقى باب جبريل فى مكانه وزين باب المئذنة الرئيسية بأحجار منحوتة حمراء لترصيعها وصنع لهذا الباب سلمًا ذا أربع درجات وترك مكان الباب العتيق للسادة الخطباء، وبينما كان يحفر أسس الجدران الجديدة ظهر مصرف مياه ولعله كان مكان اجتماع مياه البالوعات، وكان فوق الرصيف وخارج مسجد السعادة، وإن كان ذلك المصرف بعيدًا عن الحجرة النبوية إلا أنه نقل إلى مكان أبعد تعظيمًا للمسجد النبوى، ولما وصلت أعمال حرم السعادة لهذه النقطة وقبل أن تركب عقود القباب الشرقية، كانت شكايات المعترضين وصلت إلى الباب العالى حيث دُرِسَتْ وحتى يُقْضَى على النزاعات والخلافات التى حدثت نُقِل محمد رائف باشا وعُيِّن الفريق أبو بكر باشا ناظر معهد الهندسة البرية السلطانية مكانه وأرسل إلى المدينة المنورة.

وتحرك أبو بكر باشا من باب السعادة وفى رفقته الحاج محمود أغا الجناح، وهو من مدرسى معهد الهندسة المذكور[1] وعثمان باشا الذى عين شيخًا للحرم ووصلا إلى المدينة المنورة فى اليوم الحادى عشر من شعبان المعظم سنة ١٢٦٩ الهجرية، وكشف الباشا المذكور وعاين كل ما تم عمله سواء أكان فى عهد حليم

(١) ومازال الحاج محمود أفندى مدرسًا فى المدرسة الحربية السلطانية للرسم ويحمل رتبة قائم مقام.

أفندى الصغير أو محمد رائف باشا، من طريق الجبل ومواقع الحرم المبجل، ثم وضع خريطة أخرى وفق أفكاره وصمم على أن يجدد ويعمر جميع جهات مسجد السعادة حتى تصير رصينة متينة وعزم على الشروع فى العمليات ـ كسلفه ـ من جهة مؤخرة حرم السعادة، ولما رأى أن القباب التى بين المئذنة الرئيسية وباب جبريل أولى بالتعمير من الجهات الأخرى أكمل تلك القباب، وأسرع فى حفر وتعميق أساس المئذنة الشكلية، وبما أن المياه زادت قدر قامة رجل كلما حفر ذلك الأساس وعمق فغرس أوتادًا وبنى قاعدة صلبة وجعل أساس المئذنة فوق هذه القاعدة وبنى المئذنة حتى كرسيها ثم عمر الأماكن التى انهارت من قديم فانتقل إلى الجهة الغربية من مسجد السعادة، وبما أن جدران هذه الجهة كانت رصينة لم يَمَسَّها ووسع فقط ما بين الأعمدة التى تحمل القباب وأحد السقوف، لأن هذا المكان كان يتكون من أربعة سقوف مبنية على أربعة صفوف من الأعمدة.

وألغى أحد الصفوف من الأعمدة وسقفًا واحدًا فنظم هذه الجهات على ثلاثة سقوف فوق ثلاثة صفوف من الأعمدة وألصق صفًا من الأعمدة على الجدار حتى يضع عليها العقود، وهذه الأعمدة مراكزها ملاصقة للجدران، كما سبق ذكره، وعقد عقود القباب فوق هذه الأعمدة ثم انتقل إلى الجهة الشرقية فهدم الجدار الذى بين المئذنة السليمانية وباب النساء، ونصب بعض الأعمدة وأخذ يبنى الجدار الذى هدمه بحجارة سوداء وقبل أن يكمل عمله وكَّلَ عبد اللطيف أفندى من رجال الدولة العالية وأنابه عن نفسه ثم سافر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وعاد بعد الحج وبذل جهده لإتمام عمليات الجهة الشرقية من مؤخرة حرم السعادة، ولكنه توفى قبل أن يختم عمليات الجهة ودفن يوم التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٧١ فى القبر الذى هيئ له فى البقيع الشريف، رحمة الله عليه.

كان أبو بكر باشا فى الوقت الذى عزم فيه على الحج كتب تقريرًا إلى شيخ الحرم النبوى عثمان باشا فى أن يعين عبد اللطيف أفندى وكيلاً له وأخذ من الباشا المشار إليه الجواب الآتى:

الأمر:

إننى عجزت عن فهم تقرير الباشا مدير الأبنية العلية ولما كانت للأبنية المسعودة مواد جسيمة وأمور عظيمة ولما كُنْتَ الموظف المسئول عن نقل هذه الأشياء، ولما كان النفع والضر عائدًا لك لمسئوليتكم وحتى لا يحدث ما يؤدى إلى تعطيل سير الأمور وتأخيرها ولبذل الهمم للمقبوضات والنفقات فعملتم على اختيار وكيل لكم وهذا منوط ولائق لرأيكم السامى.

صورة التقرير:

وقد قررت كما تعرفون أن أسافر فى هذه الأيام إلى مكة المكرمة بنية أداء الحج المفروض ولما لزم أن تدار المهمة التى ألقيت على عاتقى وقبلت نظارتها بواسطة وكالة أحد موظفى الأبنية العلية، يا ترى هل من المناسب أن يختار لها أحد المقربين إلى وهو مدير الحرم الشريف صاحب العزة لطيف أفندى الذى سبق أن وجهت له الوكالة، أو ترون شخصًا آخر أنسب لهذه المهمة؟ ومهما كان اختياركم للشخص الذى ستنتخبونه وكيلاً مكانى أرجو أن تبينوا فوق هذه الورقة البيضاء ما ترونه وأن تسطروه والأمر فى هذا الخصوص لمن له الأمر.

حرر فى ١٩ ذى القعدة سنة ١٢٧٠.

وقد صادفت وفاة أبو بكر باشا للوقت الذى كان فيه دلاور باشا شيخًا للحرم، وبناء على التكليف الذى حدث من محافظ المدينة ومن هيئة مجلس الشورى إلى دلاور باشا كان قد قبل وكالة أمانة البناء حتى لا تتعثر عمليات البناء، وأمر بأن تهدم الجهات التى فى ناحية باب الرحمة الغربية فبناها مجددًا وتمم الأماكن التى ظلت ناقصة فى الجهة الشرقية بأن جعل سقفها فى وسع سقوف الجهة الشامية والغربية، وبنى أمام الجدار القبلى الرصيف الواسع الذى يطل عليه موضع الجنائز وعلى يسار من يخرجون من باب جبريل، يعنى فى الجهة الشامية من ذلك الرصيف، محلين مشبكين ومسقفين وفرش ما بين المحلين بقطع رخامية.

وكان كثيرون من الفقراء والغرباء يبيتون فى هذا الموقع الشريف فى أيام

الصيف مثل أصحاب الصُفَةِ وعندما يرد الحجاج والزوار كانوا يجتمعون فى هذا المكان ويؤدون الصلاة.

أُبْلِغَ الباب العالى بوفاة أبى بكر باشا وإحالة وكالة أمانة البناء إلى شيخ الحرم دلاور باشا، وأسند أمانة الأبنية العالية إلى أمير الأمراء ناظر المدرسة البحرية سابقًا أدهم باشا بعد أن انتخب لذلك المنصب فى مجلس خاص بالوزراء وصدر الأمر السلطانى بذلك بعد الاستئذان فى أواخر سنة ١٢٧١هـ وأرسل إلى المدينة المنورة فى سنة ١٢٧١هـ.

وصل أدهم باشا إلى المدينة دار العز فى الخامس عشر من شهر صفر الخير من سنة ١٢٧٢هـ، وثابر فى إيفاء مهمته وجدد فى فترة، تقرب من سنتين، الأساطين والقباب التى بين باب النساء ومئذنة العزيز والجدران الكائنة فى تلك الجملة فى صورة غاية فى الكمال والنظام.

كان السلطان سليمان خان الغازى قد جدد فى سنة ٩٤٠هـ المئذنة العزيزية الجميلة كما بين فى الصورة الثامنة من الوجهة الأولى وجعلها ذات شرفات ثلاث مثل مآذن باب السعادة، لذا أُطْلِقَ عليها فى ذلك الوقت المئذنة السليمانية.

وتلك المئذنة محاذية للمئذنة الشكلية التى وفق فى تجديدها المرحوم السلطان عبد المجيد، وعندما عُمر مسجد السعادة اقتضى الأمر إصلاح تلك المئذنة أيضا فربط ـ عندئذٍ ـ محمد راشد أفندى من موظفى أمانة البناء حبالاً ما بين المئذنتين ليعلق عليها المحيا مثل مساجد باب السعادة إستانبول وذكر أن هذا الفعل سيعطى للمدينة المنورة الميمونة رونقًا آخر وزينة أخرى، واستأذن بعد تعمير المئذنة السليمانية بأن تقام محيًا[1] هناك فى ليالى رمضان واستكره السلطان الذى يتصف بصفات الزهد لشدة حبه لشفيع المذنبين ﷺ وفرض عبوديته إحداث بدعة فى دار

(١) إن بناء محيا فى الجوامع ذات المنارتين كان بدعة سيئة أحدثها إبراهيم باشا الذى تولى الصدارة نحو اثنتى عشرة سنة فى عهد السلطان أحمد الثالث وذلك فى عام ١١٣٢ هـ.

الهجرة وتجنب ذلك بتقبيح الفكرة التى عرضها محمد راشد أفندى ولذلك تأخر تعمير المئذنة المذكورة، ولما كان جميع لوازم بنائها جاهزة فعمرت فى عهد السلطان عبد العزيز بشرط عدم إقامة المحيا، وأنفق لتعميرها بعد الكشف عليها خمسة وأربعين ألف قرش وسميت بالعزيزية.

بينما كان أدهم باشا مشغولاً بتعمير وتجديد جهة باب الرحمة صدر الأمر السلطانى بخصوص إرسال محمد راشد أفندى من أعضاء دار الشورى العسكرية لأنه كان قد التزم قديمًا من جانب محمد رائف باشا تجديد القباب والأعمدة التى فى مقدم الحرم الشريف كقباب وأساطين مؤخر الحرم الشريف وكان قد رأى فى هذا العمل نوعا من المحسنات والجمال لحرم السعادة.

ولكن العمل بهذا الرأى كان سببًا فى وقوع منازعة كبيرة، وكان أهالى المدينة فى ذلك الوقت قد أبلغوا الأمر مع بعض الأوراق والمضابط إلى باب صاحب القرار كما سبق ذكره ورجوا من السلطان أن يجدد داخل حرم السعادة وفق أفكار وآمال الأهالى؛ ومن هنا قرر إرسال محمد راشد أفندى وتعيينه ليحقق فى منشأ هذا النزاع وللكشف عن تعميرات مبانى الحرم الشريف وكيفية سير العمل فيها، وحساب نفقات تجديدها.

وصل محمد راشد أفندى سنة ١٢٧٢هـ خلالها، إلى دار السكينة وكشف عن الأماكن المتنازع عليها فى مؤخرة حرم السعادة وفى داخله، وبعد العودة سلم الباب العالى لائحة رأيه الشخصى مع المضابط التى قدمت من طرف الأهالى وموظفى الدولة مع الخريطة والأوراق الأخرى إلى الباب العالى، وبعد عمل ما يجب إجراؤه عرض الأمر على عتبة السلطان العالية الذى أصدر أمره بأن يدرس الموضوع فى مجلس خاص للوزراء ثم استذكرت الناحية الشرعية من الموضوع فى مجلس دار الإفتاء السلطانى الذى يتكون من العلماء والفضلاء والوزراء القدماء وقرر المجلس المذكور عدم جواز تغيير محال و أشكال ثمانية أعداد من الأعمدة التى تعد من الآثار النبوية الجليلة الخالية من العيب وكذلك الأساطين التى ركزت

فى عهدى عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ عندما وسعا مواضع الصلاة فى المسجد باتفاق آراء الصحابة، من مائة وثلاثة وأربعين عمودا فى حاجة إلى التعمير فى داخل الحرم النبوى الشريف، وبما أن شكل القباب والأساطين ومحالها التى أضيفت فى عهدى السلطان مراد خان الرابع، وقايتباى المصرى لم تخضع للتغيير فى زمانهما، ورأى أن يعمر ويجدد الأعمدة التى ستحمل عليها القباب الحجرية بدلاً من السقوف على هيئاتها الحالية، وبما أن الأساطين القديمة كانت مصنوعة من الحجر الأسود ومغلفة بقطع رخامية رئى أن تترك الأساطين غير المحتاجة إلى التعمير والتصليح فى حالتها القديمة والقباب من دكة الأغوات إلى باب الرحمة التى قرر صنعها بناء على الكشف القديم، وأن يجدد الجدار القبلى من باب السلام إلى المئذنة الرئيسية وألا تترك أنقاضها ومربع مرقد السعادة سيحتاج إلى التشييد والإحكام وعرض الأمر على العتبة السلطانية ملخصًا فى مضبطة.

وأن تجدد وتعمر المواقع المسعودة على الوجه المذكور والمشروح وأرسل ذلك الأمر[1] السلطانى بمضبطة مخصوصة إلى طوسون باشا شيخ الحرم النبوى.

وكان مضمون ومندرجات اللائحة التى أرسلت إلى طوسون باشا الانتباه إلى ما جاء من قرارات فى اجتماع مجلس الوزراء الخاص والعمل بموجبها ووقاية الأشياء التى تستخدم فى البناء من التلف والإسراف فيها، وتكوين مجلس من الموظفين المحليين ومهندسى الأبنية ورؤساء الحجارين بخصوص النظارة على العمال وحسن استخدامهم؛ وتعيين الوظائف الأساسية لهذا المجلس وذيل اللائحة بتوقيعات أعضاء المجلس الفخم كما صدقت من مقام الصدارة العظمى.

وكان سبب حدوث المنازعة هو كشف محمد رائف باشا داخل الحرم الشريف

(١) قد كتبت صورة من هذا الأمر السلطانى فى ذيل الصورة تحت رقم (١). (فى أصل المؤلف).

وتعميره لمؤخرة حرم السعادة وكانت تعميرات حرم السعادة تنقسم إلى قسمين الصورة الأولى عمليات مؤخرة حرم السعادة ومتفرعاتها، والصورة الثانية تعمير داخل الحرم الشريف ومشتملاته وفق الخريطة لتعمير مؤخرة حرم السعادة وتجديده والتى قدمت للمقام السلطانى السنى وحازت الموافقة، وفعلاً قد بدئ فى العمل وفقًا لهذه الخريطة، وختم بهدم آثار قايتباى مع مشتملاتها من محاذاة باب الرحمة إلى آخر الحرم الشريف الملاصق لتلك الآثار وبما أنه كان قد تم الاتفاق على هدم قباب قايتباى وإنشاء قباب جديدة؛ لهذا لم يكن فيه ما يثير النزاع، ولكن الأساطين التى تحمل السقوف والقباب فى داخل حرم السعادة والتى صنعت من حجارة صغيرة ومع مرور الزمن انفصلت عن بعضها ولما رئى أنها ستكون سببًا فى سقوط السقوف والقباب أحيطت بآحزمة حديدية وظلت بعضها معوجة متمايلة، ومن هنا وجب تعميرها ورضى الأهالى على ذلك، وأراد محمد رائف باشا أن يجدد الحرم النبوى فى طراز جديد جميل بتقليل عدد الأعمدة وتغيير شكلها مثل أعمدة مؤخر حرم السعادة وأن يوسع مواقع الصلاة وأراد أن يعين ثمانية أعداد من الأعمدة التى تعد من الآثار النبوية بتركها على حالتها القديمة، لو كان مسجد المدينة قد جدد وعُمِّرَ على هذا الشكل لكان الحرم الشريف اتسع وبلغت زينة البناء إلى الكمال وحدث تطابق وتناسب وتناسق فى هذه القضية الفنية، وكل ذلك بناء على قول محمد رائف باشا.

وإذا ما طبق فن الهندسة على تعمير مبانى الحرم فكان رأى محمد رائف باشا صحيحًا كما أن الأدلة التى ساقها بخصوص زينة المبانى ترى لا غبار عليها، إلا أن كون داخل حرم السعادة من الآثار المباركة القديمة كما أن جميع الأعمدة التى فى هذه الجهة من الأعمدة التى تتشرف بِقِدَمِهَا، جعل مسألة تغيير تلك الأعمدة وتغيير أماكنها بادعاء توسيع الموقع والمحل، مسألة غير لائقة.

ومن أجل رد خواص دار السكينة آراء الباشا المذكور الفنية وملاحظاته، قالوا ردًّا على رأى الباشا: «إن عدد الأساطين التى تحتاج للتعمير فى الحرم الشريف مائة وثلاثة وأربعون عمودًا ثمانية منها من الآثار النبوية، ولا يجوز تغيير أشكالها

ومواقعها بالمرة، وكانت الأعمدة التى أضافها حضرة عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ كان بقصد توسيع مواقع الصلاة وبإجماع آراء الصحابة وبما أن هذه الأساطين قد ركزت باتفاق الصحابة وإجماعهم ولم يتجرأ أحد إلى الآن على تغيير طرزها وهيئاتها، يقتضى النظر إليها على أنها من الآثار أيضا ولا يجوز تغيير هيئاتها أو تقليلها بحجة التناسق الفنى، ولا بأس فى تغيير غير هذه الأعمدة، كما أنه لن يحدث تناسب بتقليل عدد الأعمدة وتغيير أماكن الأعمدة التى أضافها السلطان مراد الرابع طاب ثراه والسلطان قايتباى المصرى، ومع هذا كانت القباب التى صنعت وأسست فى عهد السلطان محمد الرابع كانت قد أسست فوق الأساطين التى كانت قائمة فى ذلك الوقت، ولما كانت الأساطين التى ستؤسس وتوضع عليها عقود الباب التى تصنع الآن تستدعى التعمير والترميم لميلها وقرب سقوطها فإذا ما رممت على هيئاتها الحاضرة، وبهذا يراعى جانب الآثار القديمة، وامتنع عن تغيير صورها وهيئاتها وإذا ما صنع ما قُرِّر تعميره من الأساطين القديمة من الحجر الأسود حتى تشبه الأساطين الأخرى، فهذا هو رأينا».

إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا محمد رائف باشا فعرضوا الموضوع إلى باب السلطان ذى القرار العادل وتسببوا فى صدور الفرمان السلطانى الذى سطرت صورة منه فى ذيل المقال.

ادعاءات الأهالى هذه جديرة بالتصديق والقبول، لأن داخل حرم السعادة لا يقاس بمؤخرة المسجد ولما كانت هذه الجهة قد جددت وفق الخريطة التى وضعت لها وكان لتجديدها مُسَوِّغٌ شرعى صريح، وأجرى لها ما يلزم. ولما ثبت بالدلائل الواضحة أن أحدًا لم يَتَصَدَّ لتجديد الحرم الشريف بإحداث التناسب فى داخله ولم يقدم أحد على تغيير رسمه ومحله، ومن هنا لا يجوز تغيير تجليات الآثار القديمة بتقليل عدد أساطينها وتغيير نقطها أو توسيع مواقع الصلاة فيه فهذه أفكار فجة سطحية، فتخريب الوليد بن عبد الملك حجرات زوجات النبى العليا لم تؤد إلا إلى انقراض الدولة الأموية وزوالها.

وقد رممت الأساطين الثمانية التى ركزت فى عهد النبى ﷺ والأساطين التى ركزت فى العهد الميمون القريب من عهده وعمرت على هيئاتها القديمة، وقد حدث اتفاق عام بناء على وجود مسوغ شرعى لتغيير شكل وأماكن الأساطين التى أضافها السلطان مراد خان الرابع والسلطان قايتباى المصرى.

وإذا ما صنع وفق الطرز الجديد بتقليل عددها وتغيير أماكنها وإذا ما اتبع طريق تجديد القباب على الهيئة المطلوبة منسوبًا لاسم السلطان عبد المجيد، فإنه لن يؤدى إلى التناسب الفنى ويكون داخل حرم السعادة قد جدد بعض أماكنه حسب النظام الجديد وسيظل الباقى على النظام القديم، والأمكنة التى عدت بمرور الزمان ومجاورة الحجرة المعطرة من الآثار القديمة المباركة تكون قد بدلت هيئاتها ومواقعها وغيرت.

وبدلا من أن تبذر الأموال عبثًا لتجديد الأعمدة التى انحرفت قليلاً أو اعوجت والتى يمكن تعميرها وتقويتها وتحويل أماكنها وشكلها، فإذا رممت الأساطين الموجودة على هيئاتها وأشكالها حيث وجدت بحيث تتحمل القباب الحجرية وإذا ما رممت بالأحجار السوداء مثل الأعمدة المتينة المصنوعة من الحجر الأسود وإذا ما غلفت الأساطين التى كانت مغلفة بقطع الرخام نكون قد ادخرنا النقود وحافظنا على أشكالها وهيئاتها الأصلية، ولما كانت الأساطين التى تحمل القباب العالية المصنوعة من عهد السلطان مراد ثمانية أو عشرة أعمدة منها فى حاجة إلى الترميم والتعمير، ولما كان بناءُ القباب الحجرية مكان السقوف جائزًا شرعًا لوقاية أبنية الحرم من الخطر وكان عامة الناس متفقين فى هذا الموضوع ولم يكن فى هذا سبب يؤدى إلى النزاع، والمنشأ الحقيقى للنزاع كان فى تقليل عدد الأساطين داخل الحرم النبوى وتغيير أماكنها، وقد اختار أهل المدينة شق تعمير وترميم الأساطين فى أماكنها، ورجحوا ذلك على استصواب محمد رائف باشا من تقليل الأعمدة وتغيير أماكنها، عرضوا الأمر على الباب العالى ورجوا بأن يعمر داخل حرم السعادة وفق ما يرغبون، وقد بحث الأمر فى دار الإفتاء

السلطانية بعمق وعرض ولما كان رأى أهل المدينة الكرام موافقًا للشرع الشريف عرض الأمر على العتبة السلطانية التى أصدرت أمرها بذلك وأرسل الفرمان السلطانى إلى المدينة المنورة.

وبما أن تغيير شكل وهيئة الأبنية العالية غير جائز أرسل لأدهم باشا للعمل بما جاء حسب ما يقتضى الأمر السلطانى كما أرسل له تحريرات سامية توصى ببذل الجهود فى هذا الأمر إذا كان مدير أمانة البناء.

وجدد أدهم باشا دكة الأغوات بحجارة منحوتة حمراء فى غاية الجمال وصنع على أطرافها أربعة أسوار مشبكة وأسس فى ذيل هذه الدكة دكة أخرى ويُذهَبُ من بين هاتين الدكتين إلى باب جبريل.

ولما كان محراب التهجد فى وسط مقصورة الدكة التى صنعت فى مواجهة دكة الأغوات وفى طرف الجهة الشامية شبكة السعادة التى جددها أيضا، ووضعوا حول الدكة الأسوار المصنوعة من النحاس الأصفر، وكان بجانب دكة محراب التهجد مخزنان، فهدمهما و جددهما بأن جعلهما أربع حجرات، كما أمر ببناء سقف عال لخلف دكة الأغوات وجهتها اليسارية وتحت هذين السقفين محرابًا وعدة حجرات عالية خاصة بخدم الحجرة المعطرة، ويذهب إلى السقفين الجديدين من بين باب النساء ودكة الأغوات.

كان مشايخ الحرم النبوى يؤدون صلواتهم الخمس فى النقطة التى يوجد فيها المحراب سالف الذكر فى الأوائل ثم أخذوا يصلون فى دكة الأغوات، والآن يصلى الأشخاص الذين يتولون مشيخة الحرم فى هذا المكان ويحدث أحيانًا أن يصلوا فى دكة التهجد التى أمام دكة الأغوات، ولكن صلوات التراويح لابد أن يؤدوها بجانب المحراب سالف الذكر.

وأمر أدهم باشا فصنع خارج باب النساء وفى جهة باب جبريل من ذلك الباب، وجدد فمد القفص الخشبى الذى أحدث سنة ١٢٥٠، هذا القفص كائن ما بين كل ثلاث أسطوانات من باب النساء إلى مؤخرة مسجد السعادة فتؤدى

النساء صلواتهن داخل هذا القفص، واستشار شيخ الحرم حافظ محمد باشا مع علماء المدينة فى غضون سنة ١٢٨٠هـ فمد ذلك القفص إلى قرب محاذاة المئذنة السليمانية، لأن جماعات النساء تكاثرت ولم يستوعبهن القفص كلهن فكانت بعض النساء يؤدين الصلاة خلف النخيل، ولما كان الرجال الذين يدخلون من باب التوسل لا يجدون أماكن للصلاة أمامهم فيضطرون أن يؤدوها خلف النساء.

ويطلق أهالى المدينة على هذا القفص قفص النساء ولونه أخضر وله أبواب مصنوعة من القطع المشبكة، تأتى النساء فى ليالى الجمع ويؤدين الصلاة، ويحضرن أولادهن حديثى العهد بالولادة فى يوم الأربعين من ولادتهم لإدخالهم فى شبكة حجرة السعادة، وتأتى بهم أمهاتهم أو أقاربهم ويسلمونهم لموظفى إدارة الأغوات، ويطلق أهل المدينة على مثل هؤلاء الأطفال الذين تُركوا فترة تحت أغطية مربع القبر الشريف فى حجرة السعادة ولد الحجرة فيلزم أن يكون خاصة أهل المدينة من هؤلاء الأطفال.

ولما كان أدهم باشا قد توفى بعد أن أكمل تلك الأقفاص بفترة قليلة فى أواخر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٧٣هـ، فاختير معاون المبانى المقدسة صالح أفندى لوكالة أمانة البناء باتفاق موظفى الحكومة وأعاظم السادات وعلماء البلاد وبلغ الأمر مع وفاة أدهم باشا إلى باب صاحب القرار العظيم.

وكانت وفاة أدهم باشا قبل أن يكمل سقف الجهة القبلية وسقف الجهة الغربية الذى يمتد من باب السلام إلى باب الرحمة إلا أنه كان جدد هذه الأماكن والقباب الجديدة التى أمر السلطان بإنشائها فى اتصال الساحة الرملية لحرم السعادة، ودكة الأغوات مستلهمًا أمر السلطان كما أنشأ كل هذه الأماكن مطابقة لآمال الأهالى وأفكارهم.

حدود السقوف العتيقة: كانت فى الجهة القبلية من مسجد السعادة ثلاثة أروقة، وألحق كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فى عهديهما رواقًا كما ألحق الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى للجهة الشامية رواقين كما أن السلطان

مراد خان الرابع ألحق ثلاثة أروقة فى الجهة الشامية أيضا ولما لم ينته بناء هذه الجهات ظهرت الحاجة إلى بناء عدة أروقة أخرى فى هذه الجهة، وعقب وفاة أدهم باشا، استصوب صالح أفندى إضافة رواقين بموافقة رأى مجلس هيئة الأبنية السعيدة، وشرع فى العمل من هذه الجهة، وأراد أن يساوى ما بين أسطوانات الجهة القبلية لأسطوانات الجهات الثلاث الأخرى، فرأى أن ترفع بعض الأسطوانات من هذه الجهة وإزالتها وبين الكيفية للهيئة العامة للمجلس الذى انعقد تحت رياسة شيخ الحرم لأن توسيع هذه الجهة فى حالتها هذه غير قابل للتوسيع والإصلاح وقام بعض الذوات معترضين على هذا أيضا إلا أن هيئة المجلس[1] استصوبت رأى صالح أفندى بالأغلبية واستحسنته وأثنوا عليه، وكتبوا فتاوى شاملة بجواز رفع الأعمدة بنية توسيع المسجد الخالصة حتى يسكتوا المعترضين معتمدين على الشرع.

وأراد المعترضون أن يسقطوا حكم الفتاوى التى صدرت من العلماء واحتجوا على عدم جواز إزالة الأعمدة المأثورة القديمة بالأحاديث التى أوردها الإمام السَّمْهُودى من البخارى وابن النجار والتى تقول: يجب أن يصلى فى جميع جهات مسجد السعادة، الصحابة الكبار قد صلوا فى جميع جهات هذا المسجد وقد أجابتهم هيئة المجلس إجابات مقنعة إلا أنهم طوروا الموضوع حتى وصل إلى مرتبة الجدال والنزاع، وأبلغوا الحالة بمضبطتين مستقلتين إلى الباب العالى وقرروا تأجيل العمل فى مسجد السعادة إلى أن يصل الرد، وحينما وصلت المضبطتين إلى باب السعادة وأطلع الوزراء على مضمونيهما، وصدق قرار الأغلبية رأيها وأحالوا الموضوع إلى محمد راشد أفندى الذى كان قد سافر إلى المدينة وحقق فى النزاع الأول الذى حدث فى أمانة البناء العالى، فاستدعوه وأمروه بأن يسافر حالاً إلى المدينة المنورة.

وشرع محمد راشد أفندى فى العمل من بقية مؤخرة حرم السعادة، وأتم العمل فى الأساطين التى تقع بين باب الرحمة وباب السلام، وفى بعض عقود

(١) وكان للسادة والأهالى فى هذا المجلس نفوذ، وكذلك أكابر العلماء وكل المفتين.

القباب، وخمسة عشر ذراعًا من المكان الذى فى جهة باب السلام من الجدار القبلى، وعندما أوصل تعميرات الحرم الشريف إلى حدود الروضة الميمونة التى يصدق عليها الحديث الشريف روضة من رياض الجنة وعندئذ ظهرت وتجددت المنازعة المعلومة مع أن محمد راشد أفندى كان مطلعًا على مندرجات الفرمان السلطانى فأصر على تطبيق أفكار محمد رائف باشا فى حصول تناسب، وابتدر فى تغيير مواضع الأساطين التى فى جهة المدرسة المحمودية للحرم الشريف والتى أضافها إلى الحرم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وبهذا أثار الناس مرة أخرى، ومع هذا أخذ يعرض على الباب العالى بعض أشياء غير مفيدة، وأخذت محاضر الشكاوى من قبل الأهالى تصل تباعًا، كل هذا أوقع الباب العالى فى الشك والشبهة فعزله وأرسل مكانه عمر جمال الدين أفندى من رجال الدولة القدماء، ولكنه توفى حين وصوله إلى مكة المكرمة فى سنة ١٢٧٥هـ فتعطلت تعميرات الأبنية المقدسة فترة ما.

قد أخذت فرقة المدينة المنورة المعترضة خزانة الدولة، وبما أن هذا الشخص كان جريئًا وحريصا استطاع أن يهيئ أكثر الأشياء اللازمة لعمليات أبنية السعادة والحجارة المنحوتة اللازمة للأساطين، إلا أن هذه الغيرة والسعى وشدة الاهتمام أنتجت قيام المعترضين ضده؛ لأن أفراد الفرقة المخالفة كانت لهم منافع شخصية فى تدخلاتهم فى عمليات البناء لأنهم كانوا يريدون أن تطول هذه العمليات أطول مدة حتى يحافظوا على تلك المنافع، ومنذ أن عزل محمد راشد أفندى إلى تعيين عمر جمال الدين أفندى وإلى ورود أحمد أسعد أفندى بعد وفاة سلفه قد أعطيت كثير من الأجور للمستخدمين فى أمور أبنية السعادة من الكتبة والعمال بدون فائدة، واستمرت هذه الفترة ما يقرب من سبعة أشهر، إذ مات عمر جمال الدين أفندى وعرض الأمر على باب السعادة وكان أحمد أسعد أفندى فى ذلك الوقت قاضى مكة المكرمة فوصل إلى المدينة المنورة فى جمادى الأولى أوائله من سنة ألف ومائتين وست ١٢٧٦ وسبعين هجرية.

وكانت الفرقة المعترضة قامت ضد محمد راشد أفندى باحثين عن تغيير مواضع بعض الأعمدة وكان هذا موضع النزاع.

إلا أن هذا القيام لم يكن كالقيام السابق إذ كان بدون وجه حق وبدون مناسبة، إذ استصلح محمد راشد أفندى أماكن السقوف التى هدمت من قبله وهى التى تلى السقف الذى ألحق فى الجهة القبلية، وبترميمات قليلة للأعمدة التى ركزت فى عهد صالح أفندى نقلها فى محاذاة الأعمدة الأخرى وحرص على أن يركز هذه الأعمدة فى أماكنها القديمة ولكن فيما بين أعمدة السقوف الثلاثة التى تلى الجهة القبلية حدث تخلف قدر ثلاثة أذرع بينها وبين الأعمدة التى ركزت مجددًا، وقد وقف محمد راشد أفندى لهذا التخلف وهو يهدم الفاصلة التى تفصل بين سقف الجهة القبلية والأسقف الثلاثة التى تليه، وإن هذا التخلف ظاهر فى العمود الرابع من صفوف الأساطين الأربعة التى تقع فى اتصال الساحة الرملية التى فى الركن الشرقى من مسجد السعادة ولا يوجد فى أساطين الصفوف الأخرى، وإن كان فى أساطين الركن الغربى من الساحة الرملية تخلفًا جزئيًا وإذا لم يمعن النظر فيه فلا يمكن تعيينه فهذا التخلف إذا ما طبق على قواعد الفن المعمارى الكلية فلا يعد من العيوب، وكان اثنا عشر عمودًا ما الأعمدة الستة عشر التى يعرف التخلف فيها من النظرة الأولى والتى تكون الصفوف الأربعة من الأعمدة، كانت ركزت من قبل أسلافه ولما كانت الفرقة المعترضة غير راعية بهذا الموضوع ظنوا أن هذا التخلف قد حدث فى عهد محمد راشد أفندى وخدعوا الناس بهذا الزعم الباطل رأغروهم بالقيام ضده. انتهى.

قد خدم محمد راشد أفندى فى تزيين داخل مسجد السعادة وقد تركت جهة الجدران الغربية أعلى من الجهات الأخرى كعلامة على الجدران القديمة وكان هذ الارتفاع أساء لجمال سطح المسجد.

أزال محمد راشد أفندى هذا العلو وأبقى جملة «هذا حد مسجد النبى» التى كانت محكوكة على هذا الصف من الأعمدة، لو كان حدد هذه الجملة قائلاً: «هذا حد المسجد الأصلى» لأحسن فعلاً لأن عبارة «هذا حد مسجد النبى» تفيد أن خارج هذا الحد ليس من جملة مسجد النبى وهو ليس كذلك.

بعد أن سوى محمد راشد أفندى وسطح ومهد أرض المسجد وهدم المخازن فى التقاء الحد القبلى للمسجد الأصلى أنشأ جدارًا منخفضًا من شبكة الحجرة المعطرة إلى انتهاء الأعمدة التى فى الجهة الغربية من جدار باب السلام وبنى فوقه سورًا مشبكًا جميلاً مصنوعا من النحاس الأصفر وفتح ثلاثة أبواب من الروضة المطهرة للخروج منها ناحية القبة العثمانية، ولما انتهى من سقوف الجهة القبلية لمسجد السعادة إلى محاذاة الساحة الرملية جهز حجرًا أحمر مزينًا لكتابة التاريخ وأرسله إلى باب السعادة حتى يكتب عليه ما انتخب مما كتبه أدباء المدينة ثم يأمر بإعادته إلى المدينة، إلا أن السلطان ذا الخصال الحميدة لم يستصوب أن يكتب لذلك المكان المقدس التاريخ وأمر بأن يعطى للمؤرخين اثنا عشر ألف قرش وحتى يتخذ قرارًا ما ينبغى إحالة الموضوع إلى مجلس العلماء المنعقد فى المشيخة الجليلة، وقرر فى المجلس أن يكتب على هذا الحجر الحديث الشريف، وفق اقتراح أمين الفتوى للمجلس محمد رفيق أفندى «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»، وأبلغ الأمر إلى دار الخلافة. وأمر الخليفة أحمد أسعد أفندى الذى تعين لأمانة أبنية السعادة بعد عمر جمال الدين أفندى بإجراء ما يقتضى الأمر عمله.

والتواريخ التى ستذكر فيما بعد هى التواريخ التى اختارها محمد راشد أفندى لتحظى بالنظرة السلطانية وأرسلها إلى الباب العالى.

عربى[1]

بشرى مليك الورى عبد المجيد

بما قد فاز من فخر دنياه وعقباه

توجهت بعظيم الأجر همتُه

وكى ينالَ من المختار زلفاه

فجددت مسجداً تهوى ملائكة

لو أصبحت فيه من عمال مبناه

ولكن بذاك إله الحق خصصه

يا فوز من خصه بالخير مولاه

وإنه أثر ما حازه ملك

من قبله بل ولا من بعد يحظاه

بطالع اليمن والإقبال آخره

على أساس التقى مذ تم منشاه

قالت الملائكة البشرى مؤرخة

على قواعد يمن عز أخراه

١٢٧٥

الآخر[2]

الله أكبر فاز سلطان الورى

عبد المجيد بأعظم الإحسان

(١) هذا التاريخ الفريد للفاضل حسن أفندى الاكسوبى.

(٢) هذا التاريخ للأديب عمر أفندى.

طوبى لـــه قد شـــاد أرفـــع مسجد

يسمـــو على الأفـــلاك بالعدنـــان

حَـــرَمٌ زهى بالروضـــة الفيحـــا التى

جلـت وأضحـــت مـــن رياض الجنان

ويميـــز الهـــادى سمـــو بحجرة

هى مهبـــط الأمـــلاك والغفـــران

بشرى لقـــد حـــاز الثوابَ مليكُنا

وحدىُ عظيـــم الأجـــر مـــن رحمان

برفيـــع همتـــه أجـــاد بنـــاءه

فى غايـــة الأحكـــام والإتقـــان

حـــرم علـــى تاريخـــه حَقًّـا زهـــى

تـــم البـــناء بهمـــة السلطـــان

١٢٧٥

وظلت أعمال المئذنة المجيدية ناقصة وقد أنشأها محمد راشد أفندى على طراز مآذن بلاد الروم وفى غاية الجمال وجعل حول شرفاتها أسوارًا بشبكة حديدية.

التاريخ الآتى الذكر هو التاريخ الذى ذكره الأديب كامل عبد الجليل براده[1] بخصوص المئذنة المجيدية.

عربى

سلطانـــنا الملـــك الغـــازى المجيـــد بـنى

فـــى مسجـــد الهاشـــمى المصطـفى طـه

(١) هذا الشخص رئيس كتاب السجلات اليومية.

منـــارة لم تطـــاول رفعـــة وبهـــا

يحق للـــدهر فخـــرًا لَوْبِهَـــا باهـــا

فريـــــدة إن بـــدا شكـــل يماثلهـــا

فإنمـــا ذاك حقـــا عكس مرآهـــا

ودت نجـــوم السمـــاء لـــو أنهـــا

انتظمـــت فى جـيدها تزهو ثرياهـــا

لغايـــة ابتهـــاج الفكـــر أرخهـــا

منـــارة بالبهـــاء تـم مبنـــاهـــا

١٢٧٥

ولما مات عمر جمال الدين أفندى ـ الذى بُعِثَ مكان محمد راشد أفندى ـ توفى وهو يؤدى فريضة الحج المشروعة فى أثناء وجوده فى مكة المكرمة؛ اقتضى تعيين شخص آخر وإرساله لتولى وظيفة أمانة المبانى العالية فأبلغ ذلك من قبل أمير مكة المعظمة شرف عبد الله باشا إلى الباب العالى وعرض ذلك السلطان من قبل الصدر الأعظم محمد باشا القبرصى وشيخ الإسلام سعد الدين أفندى وتَأَنَّى فى تعيين شخص وإرساله، وسكت السلطان فترة وهو يفكر ثم شرع فى الإجابة قائلاً: «لابد أن فى هذا الأمر سِرًّا خَفِيًّا وحكمة، وقد أرسلنا هناك من الباب العالى من نثق فيهم مثل حليم أفندى الصغير، ومحمد راشد أفندى، وعمر جمال الدين أفندى فلم يستطيعوا أن يكملوا مهمتهم، ثم أرسلنا من أمراء جيوشنا من له اليد الطولى فى فن الهندسة مثل محمد رائف وأبو بكر وأدهم من الباشوات، وكذلك لم يوفقوا فى إتمام المهمة؛ فلنول ـ كتجربة ـ أحدًا من رجال الطريق العلمى المقتدرين، يا سعد الدين أفندى فاعثروا على رجل يتصف بالصدق والروية ومعروف بالتقى والتدين وأرسلوه إلى المدينة المنورة حتى يكمل تلك الخدمة التى تجلب الفخر والزهو، ولما قال له سعد الدين أفندى الأمر لكم

ياسلطاننا، وإننا سنعثر على داعية مستقيم الأفكار قد سلح نفسه وزينها بأفكار توافق أفكار سلطنتك وسنعرض الأمر على عتبة سلطنتك بعد الاستئذان، فقال له السلطان لا كلا لا لزوم لتعيين موظف من هنا.

وحتى لا تتعرض تعميرات البناء المقدس للانقطاع فترة أخرى قد أحلت مهمة أمانة الأبنية العالية إلى ابن عريانى أحمد أسعد[1] أفندى قاضى المدينة المنورة ـ على صاحبها أكمل التحية ـ والذى يوجد الآن فى مكة المكرمة وفوضت الأمر إليه لكفائته، ولما كان أحمد أسعد أفندى أبا عن جد من رجالنا المشهورين والداعين للدولة والمستقيمين فإننى أثق فيه، بسبب تجاربى السابقة، وإن شاء الله يوفق فى إتمام مهمته على أحسن وجه، وتلقى أحمد أسعد أفندى هذه الإجابة التى تنطوى على الإرادة السلطانية فأرسل الفرمان السلطانى الذى يتضمن تعيين أحمد أسعد أفندى بالمدينة المنورة سنة ١٢٧٥هـ وبُلغت التوجيهات السلطانية وحسن ظن السلطان فيه عن طريق آخر، كما طلب منه أن يبادر فى العمل دون تأخير وأن يبذل أقصى جهوده لإتمام مهمته، وأوصى بإخطارات أخرى مبينًا دقة الموقف وأهميتها وبلغت إدارة مكة المكرمة أنه إذا ما استدعى الأمر من جانب أحمد أسعد أفندى نزاع الأهالى فعلى أمير مكة أن يذهب بذاته إلى المدينة المنورة لحل المشكلة.

ولما أخذ أحمد أسعد أفندى الأمر[2] السلطانى بتعيينه فى عمارة المسجد النبوى بكى من سروره وسجد لله ـ سبحانه وتعالى ـ على تعيينه لتلك الخدمة المسعودة دون أن يكون له دراية بهذا الموضوع، فتحرك رأسًا من مكة المعظمة ووصل إلى المدينة المنورة فى أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٧٦هـ.

وزار حجرة الرسول ﷺ المعطرة ـ عليه أعظم التحايا ـ وعرض عليه تذلله وافتقاره وأبان عجزه واستعان برسول الله ﷺ فى إتمام مهمته راجيًا نصرته وعونه وشرع فى إتمام مهمته بعد أن بدأ فى عمله ذاكرًا اسم الله، وأتم ذلك العمل

(١) تولى الأفندى المشار إليه منصب المفتى فى اليوم الثامن من شهر ذى الحجة عام ١٢٩٥.

(٢) وصورة هذ الفرمان مندرجة فى ذيل الصورة رقم (٢).

المعقد فى أول ذى الحجة من سنة ١٢٧٧ دون أن يستعين حتى بالشريف عبد الله باشا ودعوته إلى المدينة، وأنهى تلك الأعمال التى عجز عن إتمامها أسلافه الكرام فى سبع أو ثمانى سنوات فى ظرف سنتين ونصف سنة كما سيعرف فيما بعد وعرض الأمر على الباب العالى وأعلمه.

مطالعة ورأى

إذا ما نظرنا إلى إتمام العمل وحسن عريانى قاضى المدينة المنورة، ندرك أن إتمام العمل وختامه سواء أكان فى حرم المدينة المنورة توأم الجنة أو حرم المسجد الذى تخدمه الملائكة وتعميرهما قد تم على يد موظفين ينتمون إلى العلوم الشرعية، ومن يعمق الفكر فى هذا الموضوع يجده من غرائب المصادفة فى العصر ومن أحكام اللطائف الغيبية وهذا بديهى، كيف لا تعد من الاتفاقات الغربية وقد تمت عمليات تعمير وتجديد مبانى الكعبة المعظمة فى عهد السلطان مراد خان الرابع على يد صاحب الفتوى سيد محمد أفندى الأنقروى الذى كان فى ذلك الوقت قاضى مكة المكرمة والذى رقى إلى مقام المشيخة الإسلامية فى سنة ١٠٩٧هـ، كما تم إجراء عين عرفات التى بدأت العمليات فيها فى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم خان الغازى وتمت فى عهد السلطان سليم الثانى على يد وعلم مفتى مكة الشافعى حسين بن أبى بكر الحسينى، ولا سيما تطهير مجرى عين عرفات الذى دام سبع عشرة سنة.

والذين تولوا نظارة عمليات التطهير قد توفوا الواحد تلو الآخر وقد أتم المشار إليه حسين أفندى أبو بكر ما لم يستطع إتمامه أسلافه فى ظرف سبعة عشر عامًا أتمها فى ظرف خمسة أشهر وبصورة وعلى هيئة كان يتمناها الجميع.

والتعميرات الكاملة للمسجد الحرام تمت فى ظرف أربع سنوات إذ كانت تحت نظارة المفتى المشار إليه.

وأراد أحمد أسعد أفندى ـ وقد تلقى الأمر السلطانى والإرادة السنية ـ أن يعمل بموجب النص الجليل ويجدد داخل حرم السعادة موضع المنازعة فيه،

وحتى ينفرد بذلك العمل عين سيد محمد أفندى من أفاضل علماء المدينة نائبًا له فى المحكمة الشرعية فاستدعى السادة الكرام والعلماء المشهورين والموظفين ذوى الاحترام للمدينة المنورة وعقد معهم اجتماعًا للمذاكرة والدراسة فى المكان الذى يطلق عليه الديار العشر والذى يقع فى الجهة القبلية من المسجد النبوى، وعرض جميع جهات العمل واستشارهم فيها، وبعد دراسة الخرائط التى وضعها أسلافه وتدقيق النظر فيها، قرر العمل بناء على قاعدة هدم الجهات التى يُراد تجديدها وإتمام العمل فيها ثم الانتقال إلى الجهة الأخرى وهدمها وتشييدها، وبدأ العمل من مؤخرة الحرم الشريف يعنى من النقطة التى كان محمد راشد أفندى قد اقترب من بدايتها داخل الحرم الشريف، كما أرى فى مسطح الرأس المضبوط فجدد تجديدًا متينا رصينًا مزينًا القباب التى بالقرب من باب السلام إلى المئذنة الرئيسية مع عقودها وبقية الجدار القبلى مع القبة العثمانية الجسيمة وقباب الروضة المطهرة مع القباب التى فى مواجهة قبر الرسول والقباب البالية الأخرى مع عقودها ومع مصاريفها وخلاصة القول كافة أسس أساطين وطاقات المسجد الشريف النبوى وقبابه المختلفة.

كما عَمَّر وقوى الحجرة المعطرة النبوية والمئذنة الرئيسية ومآذن باب السلام وباب الرحمة كلها وفق ما جاء فى فكر الأمر السلطانى وأحكامه وطبقًا لقرار مجلس الاستشارة، وهكذا أتم تعمير جميع جهات حرم السعادة كما سبق تعريفه على أحسن وجه وجعل جميع القباب الخشبية التى شيدها من الحجر وبهذا قد حظى بشكل وثناء أهالى الحرمين المحترمين، شكر الله سعيه.

كان شيخ الحرم النبوى فى عهد أحمد أسعد أفندى شيخ الوزراء المرحوم مصطفى باشا فى اسكودار وكان لمهارته فى فن العمارة وهمته وغيرته وجهوده فى استكمال أسباب إنشاءات المبانى المقدسة، ومساعى محافظ دار الهجرة من قدماء الرفقاء الكرام المرحوم خالد باشا ومعاونته وإقدام واستقامة رئيس مراجعى الأبنية العالية بدر الدين (!) ورئيس المهندسين الحاج محمود أفندى وسائر الموظفين، أكبر أثر فى تسهيل المهمة وسرعة إنجازها ومن ثمة فى إتمام إنشاءات حرم السعادة قبل الأوان بفترة.

وقد حُكَّ مذهبًا ليوضع فوق طاق باب السلام ذى الفيوضات منظومة تاريخية كما صنع طغراء غراء على أن توضع فوق المكان الخاص الذى هيئ فى وسط القباب المجيدية العالية التى تقع فى جهة من الساحة الرملية فى مؤخرة حرم السعادة، وقد أرسلت المنظومة التاريخية التى كتبها قاضى المدينة المنورة السابق يعقوب عاصم أفندى ليعرض على أعتاب السلطان بواسطة أحمد أسعد أفندى إلى شيخ الإسلام سعد الدين أفندى وأن تعاد إلى المدينة فى حالة نيلها القبول.

وقُدمَ ذلك التاريخ إلى السلطان حتى يلقى عليه نظرة، وإن كان قد وافق مزاج السلطان الفطرى إلا أن استخدام بعض التعبيرات التى توافق الصنعة الشعرية أراد السلطان ذو السمات الملائكية الذى يتوسل إلى روح محمد ـ عليه صلوات الأحد ـ فى كل أمور السلطنة وخصوصياته أن يحرر التاريخ الذى سيوضع فى داخل المسجد النبوى الشريف من الخيالات الشعرية وفى صنعة معبرة عن سليقة الإخلاص ولذا قال: «من أنا حتى أتجرأ على تعليق الطغراء داخل البناء المقدس الذى بناه سلطان الأنبياء ـ عليه أعظم التحايا ـ بذاته! فمن الأنسب أن يكتب فى المكان بدلا من التاريخ والطغراء حديث شريف مناسب لذلك المقام المقدس ويعلق هذا التاريخ بعد تصحيحه فوق كمر أحد أبواب حرم السعادة وهذا أنسب، وبعد أن يصحح زيور[1] أفندى هذا التاريخ فليرسل إلى المدينة المنورة باهرة الشرف»؛ وبناء على هذا الأمر السلطانى صحح ذلك التاريخ وأرسل إلى المدينة على أن يعلق فوق طاق أحد أبواب حرم السعادة، وأن يكتب على حجر التاريخ، الذى أرسله محمد راشد أفندى قديمًا ولم يَلْقَ قبولاً لدى السلطان، الخبر الصحيح: «صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»، وأن يكتب مكان الطغراء عبارة «قال النبى عليه السلام» وبما أن هذا الأمر السلطانى قد أبلغ إلى أمانة المبانى العالية قد وقر وفخم ذلك المقام ووُجدَ الاحترام للأمر السلطانى ووضعت الطغراء الغراء المجيدية فوق طاق باب السلام مذهبة حيث زينته.

(١) هو من مشاهير الشعراء، تولى منصب وزارة الأوقاف لمدة طويلة وتولى منصب مشيخة الحرم مؤخرًا.

وبعد أن جدد وعمر وشيد وأصلح جميع القباب والأساطين الكائنة فى مؤخرة حرم السعادة أو فى داخله كما عرف آنفًا، وحتى يقووا ويدعموا أساس القبة الخضراء المرتفعة التى فوق الحجرة بنوا جدارًا لصق أسس شبكة الحجرة المعطرة وبإقامة بعض العقود فوق هذا الجدار دعموا القبة الخضراء الشريفة وحافظوا عليها فى صورة متينة.

وإن كانت تلك القبة اللطيفة عمرت فى عهد السلطان محمود خان الثانى إلا أن جهة من عقود القباب الجديدة التى ستؤسس فوق جدران القبة الخضراء أدرك لدى الكشف عليها أن هذه الجدران ليست متينة بدرجة تتحمل العقود الجديدة ومن هنا قرر تدعيم قواعد الجدار العتيق، وبناء على هذا القرار حفر حول الشبكة الشريفة أساسًا عميقًا قدر ستة أذرع وجدد أساس الجدار الذى صنع فى عهد السلطان محمود فأسس وطرح أسس الجدار الجديد مطابقًا لهذا الأساس الغير قابل للاندراس.

فالقبة اللطيفة التى عمرت فى عهد السلطان محمود خان العدلى قد حفرت قاعدة أساسها إلى أن ظهر تراب سليم، والحجارة التى وضعت كأساس كانت فى غاية الصلابة والإحكام وفوق ذلك قد ربطت بعضها ببعض بقيود من حديد ورصاص مذاب، وإن كان هذا الأمر تبين عند المعاينة.

ولكن حتى توضع عقود ما اقتضى تجديده من القبة العالية وحتى تقوى وتحكم الجوانب الأربعة للقبة الخضراء درجة أخرى رئى أن يُبْقَى على الجدار الذى بنى فى عهد السلطان محمود خان حول الحجرة المعطرة وأن يبنى حول هذا الجدار جدار آخر وتوضع عليه عقود القباب الجديدة فوق الجدار الجديد، وبهذه الطريقة قد رصنت سواء أكانت القبة الخضراء أو القباب الأخرى العالية فوق المطلوب، وبناء على هذا التعريف يقتضى أن يرى الجداران المحدثان من الخارج إلا أن شبكة السعادة العارضة تحيط سواء أكان بالجدارين اللذين بنيا فى عهد السلطان محمود أو الجدارين اللذين بنيا فى عهد السلطان عبد المجيد، وبما أن

شبكة الحجرة المعطرة اللطيفة كما سبق تعريفها ظلت بين القواعد والدعامات التى أنشئت لتشييد القبة الخضراء ولأجل ذلك فرؤية هذه الجدران غير ممكنة.

وبناء على ما فُهِمَ من هذا التفصيل فالقبة الخضراء التى تشاهد من خارج المسجد الشريف هى تلك القبة التى تطلق عليها القبة الخضراء فهى قبة خضراء كبيرة فوق قبة الحجرة التى تقع فوق مربع قبر السعادة، وكما سيبين فيما بعد أن القفص المصنوع من السلك الذى يغطى المربع المقدس تحته قبة صغيرة وهذه القبة فوق مرقد السعادة وتعرف باسم قبة الحجرة.

وكان داخل الجدران الأربعة المتصلة والذى يقال له مربع القبر الشريف كان فى الأصل دار أمنا السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فنعوش صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ وأبو بكر الصديق وعمر الفاروق ـ رضى الله عنهما ـ مدفونة فى داخل هذا المكان السعيد.

قد زينت الأطراف الأربعة لمربع القبر الشريف بالأغطية الغالية التى أرسلها السلاطين العثمانيون خاصة للحجرة المعطرة، لهذا ليس هناك من رأى ظهر مربع قبر السعادة فى الأزمنة القريبة، ويرددون أن هذا المحل مستور بقفص مصنوع من الأسلاك وظهر هذا القفص الجهة الداخلية للقبة الخضراء التى ذكرت، ويدخل شعاع الشمس من نافذة قبة النور التى تقع فى الناحية القبلية من هذه القبة، فينير سواء أكان داخل مربع القبر الشريف أو جدرانه وما بين القفص الذى يطلق عليه شبكة السعادة.

ليس فى زماننا من رأى داخل مربع قبر السعادة، يعنى داخل الجدار الذى يحيط بأطراف القبور الثلاثة، وإن كان للمربع المقدس فى جهة السعادة نافذة صغيرة، ومن الواضح أن من ينظرون من هذه النافذة الصغيرة يستطيعون أن يروا داخل مربع القبر الشريف إلا أن من رعاية شروط الأدب عدم النظر إلى داخل المربع ولأجل ذلك لا يمكنهم أن يجيلوا أنظارهم فى داخل المربع، ويجرى

أهالى المدينة رسم الولادة كما عرف فى الصورة الثالثة من الوجهة الثالثة، بأن يلقوا أولادهم حديثى العهد فى داخل هذه النافذة.

كان قد أخرجت خلال سنة ٥٥٤ من داخل مربع قبر السعادة جيفة هرة متعفنة، وبناء على الظن القوى أن تلك الهرة قد دخلت من تلك النافذة ولم تستطع الخروج فهلكت وتعفنت وحتى يزال أثر تعفن الجيفة الكريه قد ترك فى داخل المربع الشريف من تلك النافذة خشب شجرة الصندل الذى نقع بدهن الورد وهذه القصة تروى بين الأهالى بسند قريب من الصحة؛ حتى إن تعطير الحجرة المعطرة على هذا المنوال قد أخذ صفة العادة.

حتى إنهم فى زماننا ـ كما سبق تعريفه فى المكان الخاص ـ يعطرون نشارة كافية من شجرة الصندل بدهن الورد ويلقونها فى يوم معين داخل مربع قبر السعادة من تلك النافذة، وبعد سنة يستردون القديم ويضعون الجديد ويقتسمون القديم فيما بينهم، ومع ذلك فسواء عند استرجاع نشارة الصندل أو إلقائها لا يدققون النظر إلى داخل حجرة السعادة، وهذه الشبكة أى القفص الحديدى الذى يحيط بمربع قبر السعادة من جوانبه الأربعة يطلق عليه شبكة السعادة، ويقال لداخل هذه الشبكة الحجرة المعطرة، وينال الزوار الكرام مرامهم بزيارة قبر السعادة من خارج هذه الشبكة[1].

بعض تفصيلات مهمة:

لما جاء الدور لتعمير قباب الروضة المطهرة صنعت ستارة خشبية عارضة فوق الأعمدة التى بين حدود الحجرة المعطرة والروضة المطهرة حتى لا يسقط تراب ولا تقع حالات تؤدى إلى عدم الرعاية والاحترام، ولم يحدث أن هتك العمال الذين يشتغلون فى هذا المكان ستارة الاحترام والأدب، فيعمل العمال فوق الستارة الممدودة بكل وقار وهدوء وينهمك العباد الذين فى داخل الروضة المطهرة فى

(١) وإن كان الزوار المتصفون بالجراءة يزورون الحجرة بالواسطة من داخلها إلا أن زيارتها من الخارج أولى تأدبًا.

عبادتهم وطاعتهم دون إحداث ضجة حتى الهمسة ما كانت تسمع حتى يظن أن فوق الستارة الخشبية لا يوجد عمال يعملون، ابتداء من الأعمدة التى فى الصف الثالث التى توجد فى الحدود الأصلية لمسجد النبى من ناحية الشام إلى أسطوانة الوفود، وفى الجهة الغربية من المسجد الثانية من المنبر النبوى وباعتبار ما بين الأسطوانتين الواقعتين فى جهة الجنوب ومن الجدار القبلى.

وسواء هاتين الأسطوانتين أو الأساطين الشريفة الأخرى إلى أنصافها كانت مزينة بألوان بيضاء وحمراء ومحلاة بذهب خالص ومذهبة وكانت هذه من آثار السلطان سليم بن السلطان عبد الحميد خان المبرورة قد أبقيتْ كما هى وغيرت زخارفها، ومن تلك الأساطين ماتكسّرت قطع رخامها بشكل لا يمكن ترميمها وقد صنعت جيدًا وحتى يعرف أنها كانت مرممة كالأساطين الأخرى قد نقشت عليها رسوم الرخام باللون الأبيض والأحمر، وشبهت بالأخرى وجميع الأعمدة التى فى الجهة الشرقية من الأعمدة الملاصقة لشبكة المنبر المنير وتحت المنبر الشريف المذكور بنى هذه الأساطين إلى السقوف التى أمام الروضة المطهرة كلها وقد جددت قطع رخامها، ولكن قطع رخام الأعمدة التى بين مواجهة السعادة وحول الحجرة اللطيفة لم تغير، على أنها علامة لازمة لحدود الروضة المطهرة من الجهة الشمالية، وأصلح ورمم بعض أماكنها، وبهذا قد حفظ حكم الحديث الشريف الذى يقول: «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة» والأسطوانات التى سطرت عليها قصيدة السلطان سليم بن عبد الحميد خان والتى سبق ذكرها فى موضوع الأساطين كانت ضمن الأساطين المذكورة التى بقيت كلها على حالاتها القديمة وغيرت زخارفها وخطوطها فقط.

وبينما كان يحفر أسس أسطوانة السرير فى محاذاة رأس السعادة وأسطوانة التوبة ظهر ماء عذب لطيف، ولما كان لهذا الماء رائحة طيبة أخذ منه أكثر الأهالى وتبركوا به وأرسلوا منه إلى أهالى البلاد الأخرى، قد انهمك الأهالى بتدبير

الأوانى والزوارق لأخذ الماء ولما وصل صياحهم إلى قدر هتك ستارة الأدب فُألقى الأساس رأسًا حُفِظَتْ حرمة المسجد.

وبينما كانت أسس هذه الأسطوانات والأسطوانات الأخرى تحفر وتفتح نُثِرَ البخور، وأحرقت أقراص الطيب وأنواع أخرى من الطيب، فى نقط وضع الأساطين، وحينما كان يحفر أساس الأسطوانة التى فى ركن الجهة الغربية القبلية للشبكة التى تحيط بالحجرة المعطرة ظهرت بئر تنزل إليها بسلم ذات تسع درجات وكان ارتفاع وعرض كل درجة شبرًا واحدًا، وكان وليد بن عبد الملك قد حفرها للسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنها ـ فى دار عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ويلزم أن تكون هذه البئر مخرج الطريق الذى سده موظفو السلطان قايتباى حتى يمنعوا اختلاط الرجال بالنساء، وكان عمر بن عبدا لعزيز قد أخذ بأمر الوليد بن عبد الملك دار أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ التى كانت فى الجهة القبلية من دار عائشة ـ رضى الله عنها ـ وأعطى لها فيما بعد فى مقابلها الدار التى يطلق عليها دار عمر بن عبد الله[1].

وكان قد فتح لهذه الدار طريقًا إلى مسجد النبى، ظل ذلك الطريق مفتوحًا إلى الوقت الذى زار فيه الخليفة المهدى المدينة المنورة ولكن موظفى الحكومة لم يستصوبوا ذهاب المهدى من هذا الطريق إلى مسجد السعادة لأسباب خفية، فسدوا الباب الذى يؤدى إلى المسجد، وفتحوا طريقًا من دار عبد الله بن عمر من تحت الأرض حتى شبكة السعادة حتى يدخل المهدى فى داخل المقصورة دون أن يراه أحد، وهذا هو الطريق الذى نتحدث عنه، وقد ذهب المؤرخون إلى أن فى مخرج الطريق الذى فتح ثلاث درجات وأطالوا فى تعريف هذا الموضوع.

ولما كان عدد الدرجات التى ظهرت تسع كما حرر من قبل فيصل خطأ رأى

(١) وسبب تسمية هذه الدار بدار عبد الله بن عمر انتقالها من السيدة حفصة إلى عبد الله بن عمر والدار المسعودة المعروفة اليوم بديار عشرة أقيمت على أرض تلك الدار.

المؤرخين إلى درجة الثبوت، حتى إن مقدار ذراع ونصف ذراع من مخرج الطريق الذى ظهر مليًا، ولما كان محتملاً أن يكون فى هذا المكان ثلاث أو أربع درجات يقتضى أن يكون مخرج ذلك الطريق ثلاث عشرة درجة، وبعد زيارة الخليفة المهدى بعدة عصور أصبحت زيارة حجرة السعادة بهذه الطريقة عادة، ولكن فيما بعد حدثت أشياء منكرة ولم تراع الأدب والحرمة فسد باب المخرج الذى فى داخل شبكة السعادة فى سنة ٨٨٤ وهكذا أنهيت تلك الأحوال المنكرة.

بينما كانت نوافذ الجدار القبلى لقبة المحراب العثمانى تجدد على حالتها القديمة أضيف عقد كبير لتدعيمه وجددت الأعمدة التى تحمل القبة بحجر أحمر ووسعت الجهة العليا من القبة وفتح على أطرافها صفان من النوافذ إحداها فوق الأخرى، وجعلوا أعالى النوافذ مقوسة فظهرت على شكل فى غاية الحسن والجمال، وحتى يقووا ويدعموا القبة التى فوق مواجهة السعادة ركزوا فى الجهة الشرقية من القبة العثمانية أسطوانتين كبيرتين مصنوعتين من الحجر الأحمر مثل الأساطين الموجودة حول الحجرة المعطرة، والقبة العثمانية الجميلة أكبر وأوسع وأكثر زينة من جميع قباب مسجد السعادة ما عدا القبة الكبيرة الخضراء التى تعلو على القبة الصغيرة التى فوق الحجرة المعطرة وقد أسست أول مرة فى عهد السلطان قايتباى عقب الحريق الثانى، وإن كان رمم وأصلح بعض جهاتها فى عهد السلطان محمد بن إبراهيم خان ـ عليهما الرحمة والغفران ـ ولكنها سقطت فى سنة ١١٤٧ وانهارت فجددت فى عصر السلطان محمد بن مصطفى بن السلطان محمد خان سنة ١١٤٨ لعدم حرمان هذا المكان من جماعة الصف الأول، بدون أن يركز أعمدة فى الجهة القبلية من الجدار مكتفيًا بالعقود الملقاة على الجدار المذكور.

وقد خالف محمد راشد أفندى آمال الأهالى وأفكارهم حيث ركز أربعة أعمدة بجانب باب السلام، وبما أن نقاط هذه الأعمدة قد حرمت من شرف أداء الصلاة

فيها طلب إزالتها، ولكن رفع هذه الأعمدة وإزالتها كانت تحتاج لنفقات كبيرة وهذا العمل سيؤدى إلى إضرار خزانة الدولة كما أنها لو أبقيت لن تصيب زينة المبانى المقدسة ورزانتها بعيب أو نقص فلم يمسوها، كما أبقت هيئة الشورى الأسطوانة التى تكون فى الجهة اليسرى للصاعدين على المئذنة الرئيسية، على أنها من جملة الأساطين القديمة مع أن رفع هذه الأسطوانة كان أولى. انتهى.

وبعد ما تمت عمليات الأبنية العالية بكل مشتملاتها ومتفرعاتها، كتبت جميع الكتابات التى كانت فوق طلاء داخل القباب وداخل الجدار القبلى باهر الأنوار كما سبق ذكره فى مكانه، وزُيِّنَ ذلك المقام العالى مرة أخرى، وكانت الخطوط المنقوشة من آثار قلم زهدى أفندى[1] من سلالة تميم الدارى ـ رضى الله عنه ـ من صحابة النبى ﷺ ومن تلاميذ رئيس العلماء الحاج مصطفى عزت المشهورين، وهى آثار لم يشهد لها مثيل.

وأراد السلطان الغازى عبد المجيد خان أن يحتفظ بصورة مصغرة لما كتب لهيئة مسجد النبى القديمة فى جامع خرقة السعادة، لذلك أمر بصنع هيكل مجسم لمسجد النبى حينما أمر بتجديده، وقد عهد بهذا الأمر واجب الامتثال وإجراء مضمونه إلى البكباشى الرسام الحاج عزت[2] أفندى من أعضاء مدرسة الهندسة البحرية السلطانية.

كما وجه إليه هندسة المبانى المقدسة العالية وأرسل إلى المدينة المنورة.

وعندما وصل عزت أفندى إلى المدينة المنورة دار السكينة قاس مساحة الحجرة المعطرة إلى أن وصل إلى جدار الضريح من الداخل والخارج أو حرم السعادة بدقة شديدة وبعد ذلك صنع تمثالاً هيكليًا من الخشب وأرسله إلى باب السعادة سنة ١٢٦٨، وقد نال ذلك الهيكل القبول الحسن وحسن التقدير وبناء على الأمر

(١) استطاع زهدى أفندى كتابة هذه الخطوط خلال ثلاثة أشهر.

(٢) عزت أفندى أخو القائم مقام شكرى بك مدرس رسم بمدرسة البحرية السلطانية.

السلطانى نقل إلى جامع خرقة السعادة بجانب جامع على باشا القديم، ووضع فى مقصورة المؤذنين ومازال محفوظًا فى صندوق زجاجى.

وذلك المعبد من جملة الخيرات الجليلة للسلطان المذكور المشار إليه، وكان ذلك الهيكل نفس المسجد النبوى الذى يخدمه الملائكة بشكله القديم، وكانت مساحته الطولية جزءا من خمسين جزء منه[1]، ويروى أن نحته الخشبى قد صنع من قبل الحافظ الحاج على[2] أفندى الذى وجد فى قطعة الحجاز المقدسة سنة ١٢٦٧هـ وهو صاحب ألف فن.

ولما كان هذا التمثال يشبه أصله مشابهة تامة نوصى أصحاب الإخلاص والمحبة برؤيته فالنظر إليه ومشاهدته يشبهان زيارة مسجد المدينة الشريف، وفى هذا النموذج بناء على ما تم عده وبناء على قيده وكتابته فى التواريخ القديمة (٣٠) قبة فى الجهة الغربية و (٢٢) فى الشمال و (٦٨) فى الشرق (٣٤) فى الجهة الجنوبية و (٥٩) فى الجهة الغربية من الحجرة المعطرة وكانت جميع قباب مسجد السعادة قبل تجديده (٢١٣) قبة متناسقة، وقد صنع (١٨٣) قبة فى سنة ٨٦٨هـ من قبل السلطان قايتباى المصرى، كما أن (٤٩) قبة منها صنعت من قبل السلطان مراد خان الرابع، وقد زين السلطان قايتباى مبانى المسجد النبوى الشريف من جهاته الأربعة دائرًا ما دار بالقباب المنيرة والسقف الملاصق للقباب سالفة الذكر والقباب التى فى مؤخرة حرم السعادة رعاية للهيئة القديمة الأصلية مكشوفًا وفرشه بالرمل الأحمر، ولما احتاج السقف الذى أنشأه السلطان قايتباى فى عهد السلطان مراد خان الرابع إلى التعمير هدم هذا السقف واستصوب تحويله إلى قباب كسائر الجهات، ودُرِسَتْ الكيفية فى الاجتماع الذى عقد من علماء المدينة وأصبحت موضع البحث وقرر تجديد النصف الشامى من ذلك السقف على حاله

(١) لما كان هذا الجزء بمقياس الذراع المعمارى فإن الذراع الواحد من التمثال الهيكل يساوى ثلاثة وخمسين ذراعًا من سطح المسجد النبوى اللطيف.

(٢) كان هذا الشخص من خدمة السلطان محمود خان الثانى وأحيل إلى التقاعد لكبر سنه فى فترة ما، وبعد ذلك عين معلمًا فى المدرسة التى أنشأها مصطفى أفندى قريبًا من شهر أمين مضافة إلى حى يايلاق بجانب جامع إبراهيم جاوش، ومازال موجودا وليس له مثيل فى فن النحت الخشبى.

وتحويل النصف الثانى من القبلى إلى القباب لما فى ذلك من محسنات، وقد عرضت المذاكرات السابقة على مقام الخلافة وقد وافق العرض للأفكار السلطانية وأرسل مع الموظف إلى المدينة عددًا من العمال المهرة حيث يتم إجراء الأمور على وجه السرعة فهدمت السقوف المذكورة وبنى على النصف القبلى ثلاثين عددًا من القباب العالية وعلى النصف الثانى من الشامى وهى الجهة الرملية، بنى سقفا جديدا لطيفًا.

وكانت السقوف التى صنعت فى عهد السلطان مراد الرابع (١٩٥) والمساحة الرملية التى تركت مكشوفة فى عهد السلطان قايتباى المصرى (٣٨٢٥) ذراعًا معماريا مربعًا، وبناء على هذا الحساب أن غير (٤٠٢٠) ذراعًا معماريًا من الساحات قد أخذت كلها تحت السقوف والقباب، بالقرب إلى سنة ١٢٧٧هـ قد أمر السلطان عبد المجيد خان بأن تحول السقوف والقباب التى صنعت فى عهد السلطان مراد خان إلى أبنية حجرية وتشيد وتقوى المبانى المقدسة فى صورة لائقة كما أرى فى خريطة تجديد حرم السعادة وهيئته القديمة، وبناء على ما جاء فى خريطة هدم السقف سالف البيان بنى مكانه تسع عشرة قبة لطيفة إحداها أبيض اللون وكبيرة وثمان وعشرين منها مستديرة وأصغر من الأولى وحوَل جميع القباب الأخرى إلى بناء حجرى وبذل جهودًا جبارة لتشيد مبانى حرم السعادة على الوجه المطلوب، وبلغ عدد قباب المسجد النبوى إلى (٢٤٢) قبة وعدد أساطين المسجد إلى (٤٢٣) أسطوانة مع أساطين مؤخرة حرم السعادة، إذ كان داخل حرم السعادة وخارجه (٤٢٣) عمود وكان (٣١٣) منها غير قابل للاستخدام وفى حاجة قصوى إلى التعمير بعد هدمها، وقد هدم منها مائة وعشر أعمدة وجددت وعمر (٣١٣) منها وشيدت، وقد رصنت جميع الجهات الأربعة للجدران والأساطين والقباب العالية بأحجار منحوتة، وأمن جميع جهاته قبل أن يتطرق إليها الخطأ والخلل وكذلك جميع مشتملاته وفروعه.

ألا فليحفظه الله من جميع الآفات السماوية والأرضية، وقد عمر مسجد

السعادة بطريقة متينة، لم تَبْقَ جميع جهاته بدون تعمير عدة قرون فلن يتعرض للمخاطر.

وسيظل مصونا بدون شك حتى إذا قضى الموجودون من الفرقة المنجية الإسلامية عمرهم كله تاركين أعمالهم، الشكر والثناء على ما قام به السلطان عبد المجيد خان من الخدمات ما أوفوا بحقه.

وما أعظم الخدمات التى أسداها هذا السلطان للمسجد النبوى الشريف وما أعظم ما أنفقه من النقود، فما بذله من السعى والجهد إلى أيامنا هذه يفوق بكثير ما بذله ملوك بنى أمية.

وعندما تمت عمليات أبنية السعادة وأصبحت رهن الختام فى سنة ١٢٧٧هـ فى أواخر ربيع الأول ولم يبق إلا أشياء صغيرة تافهة، وأماكن محدودة للمفتين والمجاورين أولم أحمد أسعد أفندى وليمة للأهالى فى الجبل الأحمر، وكانت وليمة عظيمة حضرها موظفو الحكومة وأكابر البلاد والعلماء والأغنياء ومالا يحصى من الفقراء والمساكين، وتليت منقبة مولد السعادة وعلق على المحجر لوحة كتبت عليها عبارة: «قد أخرج من هنا الأحجار التى احتيج إليها لتجديد حرم السعادة.

وقد وقع تحت النظر فى دفتر إجمال النفقات أنه قد أنفق لتعميرات الأبنية العالية والإنشاءات الجليلة سبعمائة ألف قطعة من الذهب المجيدى وكل قطعة تساوى مائة قرش ومائة وأربعين ألفا من الصرر والدراهم، كما أن ما أرسل من باب السعادة من الألواح الخشبية والحديد والقصدير، والنحاس وأشياء ثقيلة أخرى كان خارج هذا الحساب، وقد استخدم فى العمل يوميا ثلاثة وخمسين عاملا ما عدا الموظفين والكتبة والمهندسين والمباشرين، وهذا التوفيق الخارق للعادة من آثار والد السلطان الكثير المحامد السلطان عبد المجيد خان المشكورة والجميلة.

ومازال أهالى البلاد الحجازية يقدسون روح السلطان المشار إليه ويعرضون

شكرهم وثناءهم عليه فى كل آن وساعة كما أنهم يذكرون بكل خير عريانى زاده أحمد أسعد أفندى الذى بذل جهودًا مشكورة فى سرعة إنجاز عمليات الإنشاء والتعمير.

ولم يقتنع السلطان عبد المجيد خان بتوفيقه فى إحياء وتعمير حرم السعادة، فقد هدم مدرسة بشير أغا التى أشرفت على الخراب من أساسها بنى مكانها سبيلاً فى سنة ١٢٦٢هـ، كما طهر البالوعات التى حول حرم السعادة وأصلح الأرصفة ونظفها فأنقذ أطراف المسجد الأربعة من القذارة والتعفن وأرسل مقدارًا كافيًا من السجاجيد لفرشها فى حرم السعادة وأرسل قطعتين من الشمعدانات الكبيرة فى ناحية المحراب العثمانى وأضاء تلك النواحى السعيدة مثل جهات المسجد الأخرى، وقد كانت جهات المحراب العثمانى فى تلك الأوقات خالية من الشمعدانات وكانت جماعات المسلمين من قبل يؤدون صلواتهم فى الظلام.

وبناء على ما كتب فى مرآة مكة، قد عمر السلطان عبد المجيد وجدد سور مقبرة المعلا، والأساطين التى أشرفت على الخراب فى المسجد الحرام، وجدار الحطيم الشريف ومسجد الخيف ومسجد الطائف ومرقد الطاهر ابن الرسول، ومحمد بن الحنفية ابن حيدر وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم، ومولد الصديق الأكبر ومولد على بن أبى طالب ودار مولد النبى السعيدة ودار الخيزران ومولد حمزة وبركة اليمانى ومرقد الشيخ محمود، وقباب مقبرة الشهداء ومذبح إسماعيل وضريح ميمونة رضى الله عنها.

للأمر السلطانى الذى صدر متضمنًا كيفية إعمار الأبنية العالية

إلى الدستور المكرم، والمشير المفخم، نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب ومتم مهام الأنام بالرأى الصائب، ممهد بنيان الدولة والإقبال، مشيد أركان السعادة والإجلال المحفوف بصنوف عواطف الملأ الأعلى، من مشيرى الجنود النظامية السلطانية شيخ الحرم النبوى الحائز على الوسام المجيدى السلطانى من الطبقة الأولى وزيرى طوسون باشا ـ أدام الله تعالى إجلاله.

وإلى المختص بمزيد عناية الملك الدائم، من رجال دولتى المتميزين ومدير المدينة المنورة والحائز الوسام المذكور من الدرجة الثانية وحامله، وفخر الأمراء الكرام، معتمد الكبراء الفخام، ذو القدر والاحترام، صاحب العزة والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى، من كرام أمير أمرائى موظف الأبنية العالية أدهم باشا، دام إقباله.

وإلى أقضى قضاة المسلمين والى ولاة الموحدين، معدن الفضل واليقين، رافع الأعلام الشريفة والدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، المختص بمزيد عناية الملك المعين، مولانا قاضى المدينة المنورة ـ زيدت فضائله ـ.

فليكن فى علمكم عندما يصل فرمانى الرفيع الشأن، أن الحاج محمد راشد ـ دام علوه ـ وهو من أعضاء دار الشورى العسكريين ومن رجال دولتى الممتازين، افتخار الأعالى والأعاظم كان قد أرسل إلى المدينة المنورة بمهمة تفتيش وتحقيق التعميرات التى تجرى فى ممسح جباه الموحدين الحرم النبوى الشريف فعاد من هناك بمعلومات جديدة وآراء محلية ومضابط وخرائط والأوراق الأخرى فمن مقتضى الأمر الملكى أن يدرس هذا الموضوع بناء على ما استجد من المعلومات

وليدرس ويذاكر فى مجلس خاص للوزراء علما بأن هذه التعميرات الجليلة تنقسم إلى قسمين:

الأول: مؤخرة الحرم الشريف ومتفرعاته.

الثانى: تعمير مشتملات داخل الحرم الشريف.

وبما أن كيفية تجديد مؤخرة حرم السعادة وتعميره قررت حتى إن أكثر عملياته قد ختمت على أحسن وجه كما أكمل بعض مشتملاته وتفرعاته كما قرر بالاتفاق العام، فى محله أن تنشأ آثار قايتباى الملتصقة بآخر الحرم الشريف على الهيئة الجديدة إلى القباب التى أنشئت حديثًا فى محاذاة باب الرحمة.

والآن فموضوع البحث هى المسألة الثانية، قضية كيفية تعمير القباب والسقوف والأساطين التى تحمل تلك السقوف، وبناء على الكشف والتحقيقات فالسقوف المذكورة مصنوعة من الخشب والأساطين التى تحتها صنعت من حجارة صغيرة أخذت فى التفتت والتجرد فربطت بدعامات حديدية، وبعضها مال للانحراف فاتفق على لزوم تجديدها وتعميرها فى محلها وبناء على هذا الاتفاق حدث مسوغ شرعى، ولكن الجانب الجدير بالتدقيق فى هذ البحث والذى أدى إلى الاختلاف والنزاع فى محله مسألة تغير هيئتها القديمة أو عدم تغيرها، والمهم أن يعرف لهذا الموضوع الحكم الشرعى الصحيح، وحتى ندقق النظر فيما أورد من الدلائل النقلية والعقلية بموجب الشرع الشريف وتعرف أهميتها للمصلحة العامة أمرت بتشكيل مجلس خاص يتكون من فحول العلماء وبعض الوزراء فى دار الإفتاء، وبعد معاينة الأوراق والمضابط والخريطة التى أرسلت من المدينة، وتدقيق النظر فيها كلها وصلوا إلى قرار وهو أنه يمكن تقليل عدد الأساطين وتغيير أماكنها وتعديلها لتوسيع أماكن الصلاة ولإحداث تناسق بين الأساطين وقدموا أدلتهم وحججهم وإن كانت كل هذه الأدلة لا بأس بها، وبهذا يمكن أن يوسع داخل الحرم الشريف لدرجة ما، ويتناسق مع مؤخرة الحرم الشريف الذى جدد على هيئة حديثة إلا أن هذه المواقع التى جددت فى مؤخرة حرم السعادة، كان تجديدها

مبنيًا على مسوغ شرعى صريح، إلا أن داخل الحرم الشريف لا يمكن مقارنته بمؤخرة الحرم، كما أن تعمير آثار قايتباى باتفاق وأجرى التجديد بناء على هذا بالاتفاق، وبما أن داخل الحرم الشريف الأصلى من الآثار القديمة الجليلة ويتشرف بهيئته القديمة، وإن مسألة التناسق والتناسب لن تكون لتحويل رسم وهيئة المسجد الحرام، ولما كان عدد الأساطين التى تحتاج إلى التعمير والترميم مائة وبضعة وأربعين، وأن ثمان منها من الآثار النبوية لا يجوز تغييرها وتبديلها قطعيًا، كما أن الأساطين التى ركزت فى داخل الحرم الشريف فى عهد أبى بكر الصديق وعمر الفاروق ـ رضى الله عنهما ـ زيدت باتفاق الصحابة فى توسيع المسجد فهى فى حكم الآثار، فمثل هذه الآثار التى وجدت باتفاق الصحابة والتى لم يسم أى جانب من جوانبها فلا يجوز تغيير هيئات أماكنها لمجرد التوسيع والتنسيق، وهذا من الأمور المسلمة، وفى هذه الحالة فالأسطوانات التى ستجدد على طراز حديث ستكون عرضة للتغير وللتبديل فهى الأساطين التى أضافها وأنشأها السلطان مراد خان والسلطان قايتباى وتترك الأساطين الأخرى، ومع تغيير هذه الأساطين وتحويل أماكنها فلن يحدث التناسق المنتظر.

ومع هذا فالقباب القديمة من آثار السلطان مراد قد وضعت فوق الأساطين التى كانت قائمة ولم يتصدَّ أحد، فى ذلك طالبا تغيير رسم وأماكن تلك الأساطين، والتوسيع المرغوب حدث منسوبًا إلى اسمى، وبإنشاء المواقع والقباب الجديدة حاليًا، وبناء على الأقوال الموثوقة وإن كان بين هذه الأساطين ما يحتاج للتجديد، ولكن بعض ما انحرف منها وبعض ما احتاج للتعمير الجزئى منها، فلا يلزم تجديدها فمثل تلك الأساطين ترمم وتسوى فى أماكنها على هيئاتها القائمة، بحيث تقوى على حمل القباب الحجرية التى ستوضع عليها، وبما أن الأساطين الموجودة فى المسجد مبنية بحجارة سوداء فمن المستحسن أن تنشأ ما يراد تجديدها من الحجارة السوداء حتى تشبهها، وعند تعمير الأساطين التى غلفت بقطع الرخام تغطى أيضًا بالرخام بعد تعميرها، ولما كان معظم قباب السلطان مراد سليمة والأساطين المحتاجة للتعمير لا تتجاوز ثمانية أساطين أو عشرة، ولما كانت

بعض أماكن المسجد النبوى قبابًا حجرية وكان أكبرها سقوفًا خشبية احتاجت إلى التعمير وستعمر على هيئة القباب الحجرية، وبهذا ستجنب المخاطر مثل الحرائق وغيرها، وعلى هذا لن يكون هناك أى مسوغ لتغيير أماكن هذه الأساطين أو تقليل عددها أو تغيير الآثار المباركة بها، وبناء على هذه التفصيلات المشروحة رجح الرأى القائل بتجديد وتعمير ما فى داخل حرم السعادة فى مكانه وعلى هيئته وشكله القائمين، وعلى هذا تعين إجراء العمليات كما تبين من الواقع، ويشرع فى العمل من بين باب الرحمة وبين باب السلام ومن بين باب السلام إلى ما بين المئذنة الرئيسية، وبما أن المحراب العثمانى وسقوفه قد كشف أولاً فمن الأهمية تجديد القبة العثمانية، وإنشاء ما بين دكة الأغوات إلى باب الرحمة، وتعمير القباب الجديدة وتشييدها وإحكامها والأبنية العالية كذلك والتى تقرر إنشاءها بناء على المسوغ الشرعى وتوسيع الأماكن التى يمكن توسيعها والتى قد وضعت أسسها لن تخلو من الحسنات وإتمام بناء تلك الأماكن وفق كشوفها، وبما أن الجدار الكبير الذى يبدأ من المئذنة الرئيسية وينتهى عند باب السلام قد ظهر ميله وانحرافه فليزال ويجدد ويعمر على الوجه المطلوب، وبما أنه لا يجوز وضع الأنقاض المختلفة من عمليات التعمير والترميم والأحجار المكسرة التى سَتُخَلَّفُ من تعمير وتجديد الأساطين فى أماكن غير مناسبة فمن الأجدر أن تستخدم فى بناء الجدران العادية من الحرم الشريف أو فى مثل هذه الأشياء، ولما كانت حجارة المكان الذى بين شبكة السعادة والحجارة المفروشة، والستارة قد تزحزحت من أماكنها، يجب أن توضع فى أماكنها بدون إحداث أى تغير، وقد نبه مرارًا على ألا يرفع أحد صوته فى أثناء العمل وألا يأتى بحركة مخلة للآداب، وأن يظهر أقصى ما يمكن للإنسان أن يقوم به من توقير وحرمة للمكان، وقد جاء ذكر كل هذه الأشياء فى المجلس الخاص وقيدت فى مضبطة.

ولما كانت هذه التعليمات الشرعية الدقيقة التى بحثت ستؤدى فى الآخر إلى عدم تغيير ما لا يراد تغيير هيئته الحالية من جهة وأن تتحقق قضية المتانة والرصانة

من جهة أخرى، يجب أن تنفذ العملية وفقًا لما سبق شرحه وذكره، وأن تحفظ الأشياء التى ستصرف للأبنية العالية من التلف والسرقات، وأن يراعى حسن معاملة العمال المستخدمين، وأن تشكل هيئة مؤقتة من الموظفين الموجودين والمهندسين ورؤساء الحجارين للإشراف على أمور الإنشاء والتعمير.

وقد تقرر فى مجلس الوزراء الخاص أن يعمل أعضاء تلك اللجنة المكونة وفقًا لما جاء فى اللائحة التنظيمية لسير العمل، وعرض هذا الأمر على ذاتى السلطانية بعد الاستئذان، فتعلقت إرادتى السلطانية على أن ينفذ ما جاء فى قرار مجلس الوزراء الخاص وصدر أمرى هذا إعلامًا وتنبيها وتقييدا من ديوانى السلطانى وقد ذيلت اللائحة المنظمة بختم أعضاء المجلس الأعلى، وصدق من مقام الصدارة العظمى، ثم أرسلت فرمان بأمرى السلطانى.

والآن وأنتم شيخ الحرم ومدير المبانى العالية وموظفىَّ الذين أثق فيهم فلتعلموا، أن كل أملى وأقصى منائى أن تعملوا على إتمام بناء ذلك المكان المبارك السامى رصينا متينا واسعا! بحيث يسر الروح النبوى، ولن يتحقق هذا إلا باتباع ما جاء فى فرمانى هذا وألا تجيزوا أبدًا تغيير هيئات الأساطين أو تبديل أماكنها لأن هيئتها وأشكالها القديمة مما يتشرف بها، وأن يبذل كل مافى طاقة الإنسان من إظهار الاحترام والتوقير لإسعاد روح النبى ﷺ وأن تعملوا على إجراء التعميرات وفق القرار الذى ذكر عاليه، وأن تحرص أن تتحرك وفق ما جاء فى اللائحة التنظيمية وأن تتجنب وتتقى العمل خلاف القرار مغيراً لأحكام اللائحة التنظيمية، لأن المخالفة ستؤدى إلى عدم رضا الله وإلى عدم إسعاد روح النبى ﷺ فضلاً عن المسئولية والندامة فى الدنيا والآخرة وسيخالف رضاى السلطانى من جميع الوجوه، وعدم إظهار أى نوع من التكاسل والتراخى فى هذا الخصوص من مقتضى إرادتى الملكية القاطعة فأعد نفسك وفق ما جاء فى هذا الأمر واعمل على إتمام تعميرات هذا المكان الجليل بكل ما فى طاقتك من جهد وبذل وسعى، فليكن هذا فى علمكم، واعتمدوا على علامتى الشريفة.

تحريراً فى أوائل ذى الحجة الشريفة سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف سنة (١٢٧٣).

للفرمان العالى الذى صدر إلى عريانى زاده أحمد سعد بن محمد أفندى بخصوص تعينيه لمأمورية الأبنية العالية

إلى الدستور المكرم، المشير المفخم، نظام العالم، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب، متمم مهام الأنام بالرأى الصائب، ممهد بنيان الدولة والإقبال، مشيد أركان السعادة والجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى، والحائز على وسامى المجيدى السلطانى من الدرجة الأولى والحامل حاليًا لقب شيخ الحرم النبوى وزيرى المحب مصطفى[1] باشا أدام الله تعالى إجلاله، وإلى أولى ولاة الموحدين، معدن الفضل واليقين، رافع أعلام الشريعة والدين، وارث علوم الأنبياء والدين، المختص بعناية الملك المعين، وهو قاضى المدينة المنورة حاليًا، مولانا أسعد ـ زيدت فضائله ـ والذى عهد إليه فى هذه المرة مهمة إدارة مبانى الحرم النبوى العالية، فليكن فى علمكم عندما يصل فرمانى بتوقيعى السلطانى الرفيع، قد مات عمر جمال موظف الأبنية العالية للحرم النبوى توأم الجنة ولزم تعيين من يناسب فى مكانه، وأنتم ذلك الشخص المناسب بما اتصف به من العفة والاستقامة والحكمة وبعد النظر وقد رئى تعيينك لوظيفة مأمورية الأبنية المباركة.

وبناء على ثقتى فيك واعتمادى على أمانتك قد صدر أمرى أن تظل فى المدينة المنورة حتى تكمل تعمير وتجديد الأبنية العالية بعد أن تنتهى مدة مهمتك الأولى، وعليك أن تعمل بموجب هذا الأمر وأن تكمل تعمير الأبنية العالية وتجديدها على هيئة تسعد روح النبى ﷺ وهذا هو الغاية ألزم بها ذاتى السلطانى، وفى هذا الخصوص أن ترسلوا سريعًا بموجب الكتابات التى أرسلت لكم من وزارة المالية

(١) إن هذا الشخص يعرف بـ «اسكوداري» وقد أبلى بلاء حسنًا فى تجديد الأبنية الشريفة.

حساب النفقات التى صرفت سواء أكان من قبل الموظفين المستقلين أو القائم مقامهم أو كلاهما وما استلموه مما أرسلت لهم الدولة، والاطلاع على هذه الحسابات المستقلة والدفاتر اللازمة الموضحة لتلك الحسابات، وأن يعامل المستخدمون من العمال بطريقة حسنة وأن يعطوا رواتبهم فى وقتها، وأن يعملوا بكل خضوع وخشوع وأن يلزموا جانب الأدب والتعظيم والتوقير، وأن يؤدوا صلاتى الظهر والعصر مع الجماعة وألا يلجئوا إلى طرق ملتوية للتنصل من العمل، وعليك ألا تهمل ما يجب إتمامه من الأعمال المهمة حتى لا يتعطل العمل، وأن تبذل كل جهدك بما عرف عنك من إخلاص فى العمل والحرص عليه، وأن تعنى بأداء مهام وظيفتك متفقًا مع شيخ الحرم المشار إليه، وأن تحقق ما تنتظره منك ذاتى الملكية من المآثر العظيمة والفطانة، وأن تبذل أقصى طاقتك، وعندما تجزم بمضمون أمرى الشريف وأنت ذلك الشيخ المحترم للحرم الشريف عليك أن تنفذ إرادتى السنية الملكية ضاما جهودك مع الآخرين موحدين طاقاتكم وقد صدر أمرى هذا فليكن ذلك فى علمكم، اعتمدوا على علامتى الخاصة.

حرر فى اليوم الخامس عشر من شهر صفر الخير سنة ست وسبعين ومائتين وألف (١٢٧٦) هـ.

نريد أن نعقد هنا مقارنة فكرية بين الملوك العثمانيين وأسلافهم من الملوك من حيث نيتهم وأعمالهم متخذين ما أدوه من خدمات للحرمين الشريفين دليلاً لذلك، وقد ثبت لدى نظر التاريخ أن أكثر من خدم الحرمين الشريفين هم: أمراء بنى أمية وخلفاء بغداد، وملوك الشراكسة، وإن كانت خدمات هؤلاء لا تقارن بالخدمات المشكورة التى أداها السلاطين العثمانيون محبو الخير والبر، لو لم تكن خدمات هؤلاء تنطوى على أغراض نفسيه لكانت خدماتهم أيضا موضع الشكر والثناء، ولكن لأشد الأسف ما أدوه من خدمات لم تساو شيئًا لأنهم أخافوا أهل الحرمين وروعوهم، وربما يكونوا قد خدموا الحرمين رئاء الناس، وكان وليد بن عبد الملك أكثر بنى أمية خدمة لآثار الحرمين الجليلين، ولما كان فكره غير صائب ونيته غير خالصة فإن كل ما أنفقه من النقود فى هذا السبيل كانت لتحقير

الأحفاد المصطفوية والأولاد المرتضوية وإجراء خبثه فيهم بما كان يضمره، وبناء على ذلك هدم حجرات زوجات النبى ﷺ وخربها، وأخرج أولاد أحفاد السبطين من منازلهم مرتكبًا فى حقهم من الإهانات التى لا تليق حتى بالأعداء وجعل سادات المدينة وأعيانها يتجرعون الدماء وحقر زاهدًا عابدًا مثل عمر بن عبد العزيز بأن عز له من وظيفته.

وكان منصور العباسى أعظم من خدم البلدتين المذكورتين، وكان قد أمر بتهيئة مصلب فى البلد الآمن المنجى الذى قيل عنه «ومن دخله كان آمنا» لسفيان بن سعيد الثورى لمجرد إسماعه الحق، وساق كثيرين من الذرية المحمدية من المدينة المنورة مقيدين مكبلين إلى بغداد وتجرأ على إعدامهم وإتلافهم فى صورة شنيعة ملعونة، وسار خلفه على طريقته وهكذا أعلنوا وأشاعوا ما يضمرونه فى قلوبهم من عداوة قديمة لآل النبى ﷺ ذوى الكمال.

قايتباى المصرى أعقل ملوك الشراكسة وأعلمهم، فخدماته للحرمين أكثر من خدمات أسلافه وأخلافه، وهذا أيضا قد أظهر دناءته ـ بناء على ما سيأتى ذكره فيما بعد ـ إذ غير موقع منبر النبى الأنور لتحقير فضلاء الحرمين متبعًا رأى المتمرد شمس بن زمن وكأنه قام بعمل خير إذ بنى رباطًا للفقراء باغتصاب ثلاثة أو خمسة أذرع من أرض شارع المسعى، وعزل من يصدقون فى الكلام من وظائفهم وأتى مكانهم بمن يكذبون وينافقون، ينقل لنا قطبى فى أثره تاريخ مكة هذه الحكاية ويرويها: «كان الملك الأشرف قايتباى المصرى قد اتخذ الشيخ شمس الدين محمد بن عمر بن زمن مصاحبًا له قبل أن يرتقى عرش مصر، وعندما تولى سلطنة مصر أرسل شمس بن زمن لتعمير المسجد الحرام وبناء بعض المؤسسات الخيرية باسمه إلى مكة المكرمة، فاشترى شمس بن زمن مبانى الميضأة التى فى شارع المسعى وبين الميلين الأخضرين وهدمها حتى الأرض، وكانت هذه الميضأة تنسب إلى الملك الأشرف شعبان بن الناصر حسن بن قلاوون وكانت أمام الباب العالى، وكانت جهتها الشرقية متصلة بمنازل الأهالى، والجهة الغربية بالمسعى الشريف والجهة الجنوبية متصلة بسوق الليل، والجهة الشمالية بدار

العباس بن عبد المطلب، وحفر شمس بن زمن أساس رباط يريد أن يقيمه لإسكان الغرباء مكان الميضأة إلا أنه دخل ثلاثة أذرع فى شارع المسعى رغبة فى توسيع البناء، وأثار هذا العمل بين الأهالى القيل والقال، فرجا قاضى مكة برهان الدين إبراهيم بن على ظهيرة الشافعى شمس بن زمن لترك الأرض التى اغتصبت من المسعى، وبين له أنه لا يوجد مسوغ شرعى لإقامة مبان فى هذا المكان.

وبما أنّ شمس بن زمن رد هذ الطلب، فتكون مجلس علمى للشورى بإغراء علماء المذاهب الأربعة واستدعوا شمس بن زمن وقالوا له أمام الفقهاء «أيها السيد الفاضل! كان عرض المسعى الشريف (٣٥) ذراعًا، وقد قسناه من حفرة أساس الرباط الذى أقمتموه فبقى (٢٧) ذراعًا، وأرادوا أن يثبتوا مدعاهم قائلين بأن مساحة المسعى الشريف فى تاريخ الفاكهى خمسة وثلاثون ذراعًا، إلا أن شمس بن زمن رد عليهم قائلا: فقولوا ما تقولون إننى لن أتنازل عن فكرى مستمعًا إلى أقوالكم، وإنكم غير قادرين على منعى من القيام بهذا العمل فأطال العلماء القول فى هذا الموضوع وانضم الأهالى أيضا إلى العلماء وخالفوا ابن زمن فأجبروه على ترك العمل وكتبوا محضرًا فى هذا الخصوص، وأودعوه لدى العلماء الذين حملوه إلى قايتباى فى مصر، كما أن شمس بن زمن كتب رسالة خاصة وأرسلها إلى قايتباى (فالذى يعجبكم من فعل قايتباى؟!) فعزل قاضى مكة وعين مكانه أحد الذين أيدوا شمس بن زمن، وأعاد العلماء الذين قدموا المحضر يائسين مكسورى الخواطر، وجلب الشخص الذى عين فى تلك السنة أميرًا للحج وأمره قائلا: «عندما تصل إلى مكة يجب عليك أن تحفر أساس الرباط وفق رأى شمس بن زمن، وأن تشرف بنفسك على العمال وقد أوصل أمير الحج موكب الحج إلى مكة سنة ٨٧٥هـ وبمجرد وصوله إلى مكة جمع العمال رأسًا وجعلهم يحفرون أساس الرباط ليلاً حتى الصباح، وأنفذ أمر قايتباى، انتبهوا لذلك! كيف انكشف قايتباى الذى أراد أن يصل إلى تنفيذ فكره الأنانى السيئ ضمن خدمته التى يريد أن يقوم بها لكعبة الله، وإن كان شمس بن زمن على قدر

من العلم ويسعى لعمل الخيرات والحسنات إلا أنه بذل أقصى جهده لتحقيق علم لا يسوغه الشرع.

وإن كان قايتباى أعقل ملوك الشراكسة وأزهدهم إلا أنه قد أظهر فى هذا الموضوع تعصبًا كبيرًا،و وقد أصر على التمسك برأيه وقد خدعه شمس بن زمن وساعده على اغتصاب ثلاثة أذرع من مكان المسعى، وعزل قاضى مكة الذى أراد أن يمنعه عن ارتكاب الفعل المنكر، وكأنه لم تكن غايته خدمة الحرمين، بل كان غرضه إظهار سطوته وشوكته وإجلاله على صورة خدمة الحرمين.

وقد تحاشى السلاطين العثمانيون الأغراض النفسية وإبراز العداوة وفوق ذلك فإنهم وقفوا بجانب الأهالى، كما تبين ذلك فى صورة الفرمان العالى المكتوب عاليه، ولم يكن الأهالى بجانب الحق وكانوا يريدون أن يطيلوا عمليات تعمير المسجد الشريف والمبانى المقدسة وذلك بتعويقها بعض الوقت ليستفيدوا من ذلك ماديًا وقد ثبت ذلك، ومع هذا أمر السلطان عبد المجيد أن يتم العمل وفقًا لآراء الأهالى وأفكارهم وفى سبيل ذلك عزل أصدقاءه مثل: محمد رائف باشا، ومحمد راشد أفندى ونقل مكانهم الآخرين وعينهم وبهذا أظهر للأصدقاء والأعداء أن خدماته السلطانية لم تكن إلا لإسعاد الروح المحمدى العالية خالية من جميع الأغراض النفسية والمادية.

رحمه الله رحمة واسعة انتهى.